الباب الأول
فى أسماء الخمرة

وهى الخمر والراح والراحة والمدام والسلاف والقرقف والعقار والخندريس والصهبا والقهوة والشراب والطلا والرحيق والشمول والحميا والكميت والمروقة والمعتقة والمشعشعة والصافية والمشمولة والصرف والعتيق والعاتق والبكر والعذرا والعروس وأم الدهر وأخت المسرة وابنة العنب والسلسل والسلسال والسلسبيل والسكر والنبيذ والنضوح. فهذه ست وثلاثون اسما أرق أسمائها وأعذبها وأكثرها دورانًا فى كلام الشعراء والأدباء وأرقها الصهبا وأعذبها الحميا وألطفها السلاف وأخفها المدام وأظرفها القهوة وأقبحها القرقف وأفضلها الراح لاشتقاقه من الروح ولملائمته لها وامتزاجه بها وهو المراد بقول أبى نواس رحمه الله تعالى:

ائن على الخمر بالائها وسمها أحسن أسمائها

وتلطف بعضهم فقال:

وأحسن ما يهدى إلى الشىء جنسه وللروح أهدى الراح فهى لها جنس

ومذهبى الاقتصار على هذه الأسماء ولكن رسم لى بعض المخاديم أن أذكر من أسمائها مائة اسم، وقال ربما وقع فى كلام بعض المتقدمين أو المتأخرين شىء منها، فيكون الطالب منه على بصيرة وكنت قد امتنعت من ذلك واعتذرت بأنها ألفاظ متروكة وحشية فلا يليق ذكرها بهذا المجموع اللطيف إلى أن جمعنى مجلس لبعض الرؤساء وكان محفوفًا بجماعة من رؤساء المصريين وأعيان الشاميين، وفى المجلس شاب من أولاد الرؤساء صحبة والده وكان ذلك الشاب مراما بالأدب فقلما يقع شىء من النظم والنثر إلا ويشارك فيه ويعمل فكره فى فهمه وكان والده فرحا به فكنت فى ذلك

المجلس كلما وقعت نكتة أو لطيفة التفت إليه وأسأله فتارة يصيب وتارة يخطئ ووالده يسر بذلك ويتهلل بسؤالى له إلى أن جرى فى ذلك المجلس ذكر قصيدة الأسعد بن مماتى التى أولها:

نعم دمعه يهمى وأحبابه تطوى

فلما انتهينا إلى قوله فيها:

فمن صدغه والخد آس وروضة ومن ثغره والريق طلع واسفنط

قلت للشاب ما الاسفنط، فقال الظاهر أنه شىء من أنواع الرياحين بدليل أنه قرنه بالآس والورد والطلع فقلت له إنما هو من أسماء الخمر، وفى البيت لف ونشر مرتب فالطلع راجع للثغر والأسفنط للريق وتذكرت ما أشار به مخدومى أولا وكان ذلك هو الباعث على تحسين المساق وإيراد بقية الأسماء وهى:

العجوز والشمطا والكلعا والدم والجريال والأسفنط والعقور والمرا والمزة والعرف والمعرقة والدرياق والزنجبيل والنامور والمدية والسبا والسبيبة والخطمة والمصطار والمصفق والمصفقة والخرطوم والقطب والنحامية والعاتية والجائية والجانية والمخيلة والمطيبة والمحببة واللذة والنشأة والمنشية والهتبة والبابلية والببشانية والمزنية والزانية والزينية والثميلة والحقبة والسامرية والساهرية والسمرية والمقرية والمفدى والمغدية والمسلية والسارية والمعينة والأسرة والتامرة والخلة والنمامة والدبابة والمنومة والمصرعة والطاردة والمتهمة والمقدمة والمؤخرة والفيهج والصرخد والقنديل والكسيس والزرجون والشموس والغرب والمغرب والرساطون والقارضى والمانع والفاقع والنافث والمهج والنبيذ والسويق والصومع والمفتاح والحجة والعمجد وفؤاد الدن وأم عبا وأم زيبق وأم ليلى وأم الخبائث والحرام والأثم. قال الحسن فى قوله تعالى: «قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن» والأثم أراد بالأثم الخمر وقال الشاعر:

شربت الأثم حتى ضل عقلى كذاك الأثم يذهب بالعقول

والمثلثة وهى التى غليت فى النار حتى صارت على الثلث، والمحترمة وهى التى عصرت بقصد الحلية أولا بقصد الخمرية على خلاف مذكور فى كتب الفقه، والبتع وهو نبيذ العسل والهعه نبيذ الشعير والمزر نبيذ الحنطة، والشكركة نبيذ الذرة وهو شراب الحبشة. فهذه أيضًا خمسة وتسعون اسمًا فمجموع ما ذكرته يزيد على مائة وثلاثين اسما ما بين مستعمل ومرفوض ومطبوع ومستهجن بعضها أسماء وغالبها صفات جرت مجرى الأسماء اعتنيت بجمعها من كلام شعر الجاهليين والإسلاميين ولكل منها شرح وعلى غالبه شعر من كلام العرب يشهد له ولكنى اختصرته خوف الملل والإطالة، ونزهت هذا الكتاب عن إيراده لاستهجان ألفاظه وعقادة تركيبه، ومن أراد ذلك فعليه بالكتاب المسمى بقطب السرور للقيروانى، فإن فيه نبذة من ذلك ورأيت فى بعض التذاكر أن لها ألف اسم قال الناشئ عفى الله عنه:

الكرم من كرم الطباع وفضلها والراح روح أخى الغرام الجاهد

ولذاك سميت الشمول لجمعها شمل الخليط وضمها للغارد

وتفاءلوا باسم المدام لأن فى إدمانها إسعاد كل مساعد

وهى العقار لأنهم عقروا بها ما جمعوا من طارف أو تالد

فاعتض بها من كل شىء فائت واغضض بها عين العدو الحاسد

ومن أسمائها ما تحسن فيه التورية كالكميت كالكميت، فإنه من أسماء الخيل أيضًا ولهذا قال الشيخ جمال الدين بن نباتة رحمه الله:

يا واصف الخيل بالكميت وبالنهـ ـد أرحنى من طول وسواس

لا نهد إلا من صدر غانية ولا كميت إلا من الكاس

أخذه القاضى فخر الدين بن مكانس فقال من موشح:

تقــول لحظى من بنـى ســاســان ينبــيك عن مــقــاتل الفــرســان

فــال به عن مــوقـف الطعــان وإن ذكــرت الخــيل فـى الميــدان

فـاشرب كـميتًـا واعل فوق نهـد

انظر أيها المتأدب إلى غـزل عيون التورية فى الكميت والنهـد فإنه أيضًا من أسـمـاء الخـيل واللوازم ظاهرة وألطف مـنه قـول الشـيخ بدر الدين بن الدماميني:

قـم بـنـا نـركـب طـرف الـ ـلـهـو سـبـقـا للـمـدام

واثـن يـا صـاح عـنـا نـى لكـمـيت ولجـام

وانظر أيضًا إلـى حسن الاستـعاذة ولطف شـمايل التورية فى الـكميت والجام فـإن الجام من أسماء القـدح واللوازم أيضًا ظاهرة وقال الشيخ جـمال الدين بن نباتة عفى الله عنه:

والكاس فى يد ساقينا مشـعشـعة تضىء من حول كسرى ضوء بهرام

قد أسـرجت وغدت للهم ملجـمة فـهى الكمـيت بأسـراج والجـام

فـفيـه ثلاث توريات فى الكمـيت والأسراج والألجـام. قلت ومن هنا أخذت تسـمية كتـابى هذا بحلبة الكمـيت لما كان مضمـارا لفحول الشـعراء ومجـرى سوابق أفكارهم فى التشـابيه الخمرية والحـلبة، كما قـال الجوهرى: خيـل تجمع للسـباق من كل أذنب لا تخـرج من اصطبل واحد لكـن تسمـية الشـيخ بدر الدين بن الدمامـينى سـقى الله ثراه مقـاطيعـه التى جمـعهـا فى الخمريات بمقاطع الشرب علم الله أنى تأخذنى نشـوة عند سماعها فالتورية فى المقاطيع وفى الشرب أيضًا ومما حسنهـا وزادها ترشيحًا كون الشيخ بدر الدين سكندريا ومما تحسن فيـه من أسمائها التورية أيضًـا الاثم، ولكن الشيخ شرف الدين عمر بن الفارض رحمه الله جعله جناسا فقال:

وقالوا شربت الإثم كلا وإنما شربت التى فى تركها عندى الإثم

ومنه قول الشيخ ابن نباتة:

ألم يكفك اللحظ الذى صال وانتشا فلم يخل فى الحالين من صفة الإثم

والحرام أيضًا ومنه قول فخر الدين القاضى بن مكانس ملغزًا فى المدام:

لا يجمعون على غير الحرام إذا تجمعوا كحباب الراح وانتظموا

والعجوز أيضًا ومنه قول ابن نباتة:

قد لقبوا الراح بالعجوز وما تخرج ألقابهم عن العادة

ألانت الفادة التى امتنعت فصح أن العجوز قوادة

والمزة أيضًا ومنه قول ابن نباتة:

طاب مقام الأنس مع شادن برزت للعيش فيه برزة

وساعدتنى الراح لما انثنى ولان بعد المنع والعزة

فيالها من ربوة خلفه قد أطلعتنى فوقها المزة

والخرطوم ومنه قول الشيخ علاء لدين الوداعى:

طورا يدير مدامة ومنبلا طورا فلست أفيق من خرطومه

وأخذه ابن نباتة فقال:

يا رب ممتنع الوصال محجب بستوه كالبدر خلف غيومه

دارت مراشفه على وكأسه فسكرت فى الحالين من خرطومه

ومنه قول الشيخ بدر الدين الدماميني وقد كتبت له على قصة:

لله ما أسعدها قصة قلبى بها قد نال مأموله

ورحت نشوان بها إذ غدت بخطك الميمون مشموله

وقال الشيخ صلاح الدين الصفدى ملغزاً فى لفظ المدام:

وما شيء حشاه فيه داء وأوله وآخره سواء

إذا ما زال آخره فجمع يكون الحد فيه والمضاء

وإن أهملت أوله ففعل له بالرفع والنصب اعتناء

وقال الشيخ شهاب الدين بن حجر محاجيًا فى صهباء:

يا فاضلا هو فى الأحا جى ليس يخلو من ولع

ما مثل قولك للذى يبكى الحبيب أسكت رجع

وكتب بعضهم إلى القاضى محمد بن عبد الرحمن بن قريعة البغدادى فتيا وهى ما يقول مولانا القاضى أيده الله تعالى فى رجل سمى ولده مدامًا وكناه أبا الندامى وسمى ابنته الراح وكناها أم الأفراح، وسمى عبده الشراب وكناه أبا الأطراب، وسمى وليدته القهوة وكناها أم النشوة أينهى عن بطالته، أم يؤدب على خلاعته.

فكتب فى الجواب: لو بعث هذا لأبى حنيفة، لجعله خليفة، ولعقد له رأيه وقاتل من تحتها من خالف رأيه، ولو علمنا مكانه لقبلنا أركانه، فإن أتبع هذه الأسماء أفعالاً، وهذه الكنى استعمالاً، علمنا أنه قد أحيا دولة المجون، وأقام لواء ابنة الزرجون، بايعناه، وشايعناه. وإن تكن أسماء سماها ماله بها من سلطان خلعنا طاعته، وفرقنا جماعته. فنحن إلى إمام فعال، أحوج منا إلى إمام قوال، فانظر أيدك الله تعالى إلى معانى هذا النثر الذى يعجز عنه البديع والمجون الذى لا يلحقه الخليع.

* * *

الباب الثانى
فى أصل الخمرة وأول من اعتصرها وما السبب فى ذلك

قيل أول من عـصرها إبليس لقـابيل وأولاده وصنع لهم آلات الملاهى، وقال الشيخ كمال الدين الدميرى فى حياة الحيوان فى الكلام على الطاوس ما نصه: **حكى** أن آدم عليـه السلام لما غرس الـكرمة جاء إبلـيس فذبح عليـها طاوسا فشربت دمـه، فلما طلعت أوراقها ذبح عليها قردًا فـشربت دمه، فلما طلعت ثمرتها ذبح عـليها أسدًا فشربت دمـه، فلما انتهت ثمرتهـا ذبح عليها خنزيرًا فشربت دمه.

فلهذا شـارب الخمر تعـتريه هذه الأوصاف الأربعـة، وذلك أنه أول ما يشربهـا وتدب فى أعضائه يزهو لونه ويحـسن كما يحسن الطاوس فـإذا جاء مبادئ السكر لعب وصفق ورقص كـما يرقص القرد، وإذا قوى سكره جاءت صفة الأسد فيعبث ويعربد ثم يهـزئ بما لا فائدة فيه، ثم ينعقص كما ينعقص الخنزير ويطلب النوم وتنحل عرى قوته. انتهى.

وحكى والله أعلم عن بعض الملوك المتقدمـة، وقيل إنه من أولاد شيث النبى عليه الصلاة والسلام أنه جلس يومًا فى قصـره وإخوته حوله فرأوا ثعبانًا فى أعلا حائط وقد مد عنقه إلى وكر حمامة بإزائه ليلتقم بعض فراخها، وفى غـضون ذلك جـاءت أمهم لـتزق الفـراخ، فشـاهدت تلك الحـالة ففـزعت واضطربت وضربت بجنـاحيها فنظـر إليها الملك وأمـر بعض إخوته أن يقطع غصنًا من شجـرة نابتة هناك فقطعه وتناوله الملك وحناه قـوسًا وأوتره بسرياق رفيع ونحـت له عودًا ووضعـه فى كبـد القوس، ويقـال أنه أول قوس وضع وفوق به على عنق الثعـبان فلم يخطه وسقط إلى الأرض فبـادروا إليه وقتلوه فرفرت الحمامة على أولادها، وقد ذاقت حـلاوة الأمن من بعد ما عيانته من أليم الشدة وطارت بعد ذلك وغابت مدة، ثم عادت وفى فمها بذر فنثرته بين

يدى الملك، فقال الملك أظن أن هـذه الحمامة قصدت مكافـأتنا على صنيعنا، وأرى أن تزرعوا هذا البذر فى الأرض لنرى ما يصيـر منه، وينتهى إليه حاله. فبـذروه فى الأرض وتعاهدوه بالسـقى فنبت ونمى وامتـد وطال وعرش وأينع وأزهر وأثمـر، فلما صـار حصـر ما تكلم أحـدهم مع الملك فى قطف شىء منه. فقال: لا أرى ذلك.

وجل القصد أن يتـرك إلى أن ينتهى ونرى ما يؤول إليـه أمره، فأهملوه إلى أن انتهى وتساقط على الأرض، فأمر الملك بإيداعه فى إناء وغطى الإناء، وقال دعـوه حتى نرى ما يصـير منه، ثم تعـاهدوه بعد أيام فوجـدوه قد هاج واضطرب وأزبد وأرغى، فـقال لابد لـهذا من منتـهى فاصـبـروا عليه حـتى يسكن، فتركوه مدة، ثم تعاهدوه فوجـدوه قد سكن وصفا وراق وضاع عرفه وبقى على الهيئـة المعلومة، فقال: هذا انتهاؤه وأراد بعض إخـوته أن يستعمل منه شيئًا فنهاه عن ذلك وقال لابد من تجـربته فى الغير، وكان من عادتهم أن الشيخ الكبيـر إذا طعن فى السن وعجز عن الحركـة أودعوه فى مكان وأجروا عليه مـا يحتاج إليـه من مأكل ومشـرب إلى أن يموت، فأمر الملك بإحـضار جماعـة من المكان المذكور فأتى له بسـبعة أنفس بين ضعـيف وطريح وأعمى ومقعـد، وأمر ساقيًـا فملأ كأسًا وطـاف عليهم فدارت عليهم الأقـداح، فما منهم إلا من قام ومشى ودار ورقص، فلما كـان من الغد سألوهم عن حالهم فقالوا لما شربنا القدح الأول طابت نفـوسنا ولما شربنا الثانى طربنا، ولما شربنا الثالث رأينا الملك كأنه فى خدمتنا فاتخـذوها وعصروها وشربت واستمر ذلك إلى الآن.

هكذا رأيت هذه الحكاية فى بعض التذاكـر، ثم رأيت المسعودى أوردها فى ترجمة، فلولى السراسين من مروج الذهب على بـعض اختلاف فيها، ثم قال هذا شراب الملوك وأنا كنت السبب يه فلا يشـربه غيرى، وقال فى آخرها

أن الملك قد منع العام من شربها، فاستعمله الملك بقية أيامه، ثم نمى فى أيدى العامة فاستعملوه.

قال وقد قيل أن نوحًا أول من زرعه وأن إبليس سرقه منه وقت خروجه من السفينة واستوى به على الجودى. قال وهو موجود فى كتاب الندامى وغيره من الكتب انتهى، وسيأتى نظير هذه الحكاية فى الكلام على الريحان من باب الزهريات وفى هذا المعنى يقول أبو نواس:

ومقعد قوم قد مشى من شرابنا وأعمى سفيناه ثلاثًا فأبصرا
وأخرس لم ينطق ثلاثين حجة أدرنا عليه الكاس يوما فهمرا

وبالغ ابن صاحب تكريت فقال:

فلو دفنوا ميتا بظل كرومها لعاش به من بعد ما ضمه القبر
ولو كتب اسم الكرم من فوق راية لجيش لام الجيش فى ساعة نصر

وأبلغ منه قول الشيخ شرف الدين بن الفارض قدس الله روحه:

ولو قربوا من حانها مقعد مشى وتنطق من ذكرى مذاقتها البكم
ولو جليت يوما على أكمه غدا بصيرا ومن راووقها تسمع الصم
ولو عبقت فى الشرق أنفاس طيبها وفى الغرب مزكوم لعادله الشم
ولو أن ركبا يموا ترب أرضها وفى الركب ملسوع لما ضره السم
ولو رسم الراقى حروف اسمها على جبين مصاب جن أبرأه الرسم
ولو طرحوا فى ظل حائط كرمها عليلا وقد أشفى لفارقه السقم
ولو نضجوا منها ثرى قبر ميت لعادت إليه الروح وانتعش الجسم

وأما قوله: رأينا الملك كأنه فى خـدمتنا فيـشهد له ما حكى عن عـبد الملك بن مروان أنه قال للأخطل: أراك تكثر وصف الخـمر نظمًا ونثرًا وأولها مرار وآخرها خمار. قال إن بينهما ساعة لا أبيعها بملكك وأنشد:

إذا مـــا نديمـى علـنى ثـم علـنى ثلاث زجـــاجـــات لهن هـدير

خـرجت أجـر الذيل تيـهـا كـأننى عليـك أمـيـر المـؤمنين أمـيـر

* * *

obeikandl.com

الباب الثالث
فى طبائعها ومنافعها وخواصها

طبعها حاد رطب، ومنافعها وخواصها أنها تفتق اللسان وتزيد فى الهمة، وتمد فى الأمنية وتألف شمل البعيدين وتزرع المحبة بين المختلفين وتنظم الأخاء وتزيد السخاء، وتعطف قلب القاسى وتشجع الجبان وتستدر الجود من البخيل، وتجلو الهموم عن القلوب، وتحدث فى الطباع طربا ونشأة لا يحدثها غيرها من املاهى.

وقال بعض الحكماء: ليس شىء ينشر الفرح والسرور ويجذب فى القلوب الصبابة والغزل والأحوار ويكسوا الخدود من التورد والاحمرار مثل الخمرة وليس فى المقام شىء أجمع منها لهذه المنافع.

وقال ابن المعتز: من خاصة الشراب جودة الهضم ونفى الغم ومنع مضر الماء وإزالة مكروه الأدواء وإليه الإشارة. يقول بعضهم:

شرب النبيذ على الطعام ثلاثة ... فيها الشفاء وصحة الأبدان

تمرى الطعام وتبتدى بمسرة ... وتزيل كل الهم والأحزان

وقال الثعالبى: لكل شىء سر وسر النبيذ السرور. وقال الجاحظ أن النبيذ إذا تمشى فى عظامك ودب فى أجرامك منحك الصدق الحسن وسد عنك باب الغم وحسم عنك خاطر الهم.

وقيل لبعضهم ما آنسك بحب الشراب فقال: لأه يقدح فى بدنى بنوره وفى قلبى بسروره، وقيل لدهقان ما الذى حبب إليك شرب الراح، فقال: لأنى رأيت الكاس يدخل والهم يخرج ومن هنا أخذ بعضهم فقال:

إذا ما صب فى الكاسات خمر رأيت بها شموسا فى بروج

وإن جلبت على الندمان يوما تزاحمت الهموم على الخروج

وقال جالينوس الراح صديق الروح، وقال بعض الحكماء الراح خميرة الفرح وصابون الترح مصحة للبدن مطية للنفس تفتح لها العروق أفواهها كما تفتح الفراخ أفواهها للطعام، وقال كسرى: الراح صابون الهم. ومن هنا أخذ الشيخ بدر الدين البشتكى فقال:

وكنت إذا الحوادث دنستنى فزعت إلى المدامة والنديم

لأغسل بالكؤوس الهم عنى لأن الخمر صابون الهموم

وقال أرسطاطاليس: الراح كيمياء الفرح، ومن هنا أخذ ابن الوكيل فقال:

وليست الكيمياء فى غيرها وجدت وكلما قيل فى أبوابها كذب

قيراط خمر على قنطار من حزن يعود فى الحال أفراحا وينقلب

وقال آخر الراح درياق الهم، أخذه ابن الوكيل أيضًا فقال:

إن الذى جعل الهموم عقاربا جعل المدام حقيقة درياقها

وقال يزيد بن المهلب وددت لو أن كاسا بألف دينار أخذه الأديب حسام الدين بن منفذ المخزومى فقال:

إنى أشح بدرهم متصدقا وأجود فى قدح بما ملكت يدى

وقال بعضهم: الشراب. يرد الشيخ فى طبع الشباب ويدعوا الشباب إلى نشاط النشوان، وفيه يقول بعضهم:

ما العيش إلا فى جنون الصبا فإن تولى فجنون المدام

كاس إذا ما الشيخ والى بها خمسا تردى برداء الغلام

وقال سيف الدين المشد:

طـــاف بـــالـــراح عـلـــيـنـــا ... فـــــرأينـا الشـــــمس تجـــــلا

بـنـت كـــــــــرم خـنـدريـس ... لـطـفـت مـــــــعـنـا وشـكـلا

لـــسـت أدرى مـن ســـنـاهـا ... هـى فـى الـكاســـــــات أم لا

عـــمـــــرت فـى الدن حـــينا ... فـاكـتـسـبت نبـلا وفـضـلا

تتـــرك الشـــيـخ صـــبـــيـــا ... وتعـــيـــــد الـكهـل طفـــــلا

وحكى الأصمعى: أن عجوز مـن الأعراب جلست فى طريق مكة إلى فتيان يشربون نبيذ التمر فاستـدعوها وسقوها قدحا فطابت نفسها وتبسمت ثم سقوها ثـانيا فاحمر وجـهها وضحكت، ثم سـقوها ثالثًا فقالت خـبرونى عن نسائكـم بالعراق هل يشربن مـن هذا الشراب. قالوا نعـم، قالت زنين ورب الكعبة.

وقال أبو العـينا: قدم رسـول ملك الروم على المتـوكل فجمـعنى وإياه مجلس فقال الرسول وقد حضـر الشراب ما بالكم حرمت عليكم الخمر ولحم الخنزير، فتركتم لحم الخنزير ولم تتركوا الخمر. قال أبو العينا فقلت أما أنا فلا أشرب الخمر فسل من يشربها فقال إن شئت أخبرك فقلت لا أكره ذلك. فقال إن الخنزير لما حرم عليكم وجدتم عنه بدلا هو خيـر منه، ولم تجدوا ما يعادل الخمر إلا شربه فلم تصبروا عنه.

وقال عبد الله بن زياد للأحنف بن قيس يا أبا بحر ما ألذ الأشربة. قال الخمرة. قال: كيف عـلمت ذلك ولم تذقها. قال: لأنى رأيت من أحلت له لا يتعداها إلى غيرها ومن حرمت عليه يتخطاها إليها.

وقال الثـعالبى: الدنيا مـعشوقـة الراح. وقيل لأبى عائشـة أن فلانًا لا يشرب النبيذ فقال قد طلق الدنيا ثلاثا.

وقيل للأعمش مثل ذلك فقال دعوه حتى يقتله القولنج.

وقال الجاحظ: كل شيء من المأكول والمشروب يكون أوله أطيب من آخره إلا النبيذ، فإن القدح الأول ثقيل، والثانى أسهل، والثالث أسلس، والرابع أسوغ، والخامس أعذب، والسادس ألذ حتى ينتهى إلى غاية الفرح والسرور.

ومن الأمثال: فلان أثقل من القدح الأول وأثقل من كتاب على شراب. وقال المأمون العباسى: اشرب النبيذ ما استبشعته، فإذا استطيبته فدعه، وقال أيضًا اشرب من النبيذ مالا يشرب عقلك النبيذ عروس مهرها العقل، وقد قيل حد السكر أن يعرى الهموم ويظهر السر المكتوم.

وقال الفرزدق: أحب الشراب أقربه من الثمانين أى الذى يوجب الحد فإن الصاحى بين السكارى كالحى بين الموتى يأكل من نقلهم ويضحك من عقلهم.

وقال الحسن: الصرف أصرف للهموم.

وقال ابن وهب: ما أنصفتها تضحك فى وجهك وتعبس فى وجهها، وقال ما أطيب الخمر لولا الخمار ونعم الخليطان ماء الغمامة والخمر، وقال بيننا من المصافة ما بين الراح وماء القراح لا يطيب الشراب الصافى إلا مع النديم المصافى فضل النبيذ على غيره كفضل الشاب على الهرم والصحة على السقم التبذل على النبيذ طرف والوقار عليه سخف بيد الكاس ثغرك إذن الوسواس:

وماء الكرم للرجل الكريم وللأرض من كأس الكرام نصيب

وقد أخذ غالب ههذ المعانى بلغاء المتأخرين وسبكوها فى قوالب حسنة نوردها إن شاء الله تعالى فى مواضعها. وقالت: دنانير جارية البرامكة من

أصبح وعنده قنينة ناقصة وزبدية طباهجية باردة وتفاحة معضوضة، ولم يصطبح فهو أحمق فاسد المزاج محتاج إلى العلاج. ويحكى أن عبد الملك بن مروان قال لأعرابى صف لى الخمرة فأطرق ساعة ثم قال:

شموس إذا شجت لذى الماء مرة لها فى عظام الشاربين دبيب

تريك الندا من دونها وهى دونه لوجه أخيها فى الوجوه قطوب

فقال عبد الملك شربتها يا أخا العرب ووجب عليك الحد، فقال ومن أين لأمير المؤمنين، قال: لأنك وصفتها بصفتها. فقال له الأعرابى: وأنا أيضًا قد رابنى من أمير المؤمنين ما رابه منى بأن يكون قد شربها، حيث عرف أنى قد وصفتها بصفتها فضحك منه وأحسن جائزته.

قلت: وهذه حكاية لطيفة ولكن البيتين لم يظهر معناهما. ونظير ذلك ما اتفق لأبى نواس وقد أمر الرشيد بقتله فقال: أتقتلنى يا أمير المؤمنين شهوة لقتلى. قال: لا بل استحقاقا. قال أبو نواس: فإن الله تعالى يحاسب ثم يعفو ويعاقب فبم استحقيت القتل. قال: بقولك:

ألا فاسقنى خمرا وقل لى هى الخمر ولا تسقنى سرا إذا أمكن الجهر

قال يا أمير المؤمنين أفعلمت أنه سقانى وشربت. قال: أظن ذلك. قال: أتقتلنى على الظن وبعض الظن إثم، قال: قد قلت أيضًا ما تستحق به القتل. قال: ما هو، قال: قلت فى التعطيل:

ما جاءنا أحد يخبر أنه فى جنة مذمات أو فى نار

قال أجاءنا أحد يا أمير المؤمنين. قال: لا. قال: تقتلنى على الصدق. قال: ألست القائل:

يا أحمد المرتجى فى كل نائبة قم سيدى نعص جبار السموات

قال يا أميـر المؤمنين أو صار القول فعلا. قال: لا أعلم. قـال: يا أمير المؤمنين أتقتلنى على ما لا تعلم قال دع هذا كله قد اعترفت فى مواضع كثيرة من شعرك بما يوجب القتل وهو الزنـا قال أبو نواس قد علم الله هذا من قبل علم أمير المؤمنين فأخبر أنى أقول ما لا أفـعل. قال تعالى: «والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم فى كل واد يـهيمون وأهم يقـولون ما لا يفعلون» فـقال الرشيد: خلوا سبيله ومن هنا أخذ الشيخ صفى الدين الحلى:

نحن الذين أتى الكتاب مخبرا بعفاف أنفسنا وفسق الألسن

روى المدايني: بينما أبرهة بن الصباح الكندى عند عـمر بن عبد العزيز وإذا بفتية سكارى لهم جمال وحشمة فأمر عمر بضربهم الحد فقال أبرهة بالله أيها الأمير لا تفضح هؤلاء بمصرنا فقال إنى أقيم الحق فيهم وفى غيرهم وأحد فقال أبرهة يا غلام آتنى من شرابهم فى القدح فناوله قدحًا فشمه وشربه وقال أصلح الله الأمير مـا نشرب فى بيوتنا على عادتنا إلا من هـذا. قال أطلقوهم فلما خـرج أبرهة قيل أتشرب الخـمر قال الله يعلم أنى مـا شربتهـا قد ولكن كرهت أن يفضح مثل هؤلاء فى بلدة أنا فيها.

نادرة: اجتـمع محدث ونصرانى فى سـفينة فأخرج النصـران زكرة من خمـر كانت معـه وصب منها فى كـاس وشرب ثم صب ثانيـا وعرض على المحدث فتناولـه من غير فكرة ولا مبالاة، فـقال النصرانى جعلـت فداك أنها خمـرة، فقال من أين علمت ذلك قـال اشتراها غـلامى من يهودى فشـربها المحدث سريعًا، وقال للنصرانى مـا رأيت أحمق منك نحن أصحاب الحديث نتكلم فى مثل سفيـان بن عيينة ويزيد بن هارون أفتصدق نصـرانيا عن غلامه عن يهودى والله ما شربتها إلا لضعف الإسناد.

لطيفة: قال أبو بكر بن عياش كنت أنا وسـفيان الثورى وشريك نمشى بين الحيرة والكرفة فرأينا شيخًا أبيض الرأس واللحية حسن السمت، فقلنا هذا

شيخ جليل قد رأى الناس وسمع الحديث وكان سفيان أطلبنا للحديث وأعلمنا به وأحفظنا له فتقدم إلى الشيخ وسلم عليه ثم قال هل عندك شيء من الحديث. قال الشيخ أما الحديث فلا ولكن عندى عتيق سنين قال فنظرنا فى أمر الشيخ فإذا هو خمار ومن هنا أخذ الشيخ بدر الدين البشتكى فقال:

وخمار هدينا فى الدياجى بجذوة كاسه وسنى النديم

سألنا منه عن خمر حديثا فأخبرنا عن العصر القديم

وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة وأجاد:

إنى إذا آنست هما طارقا عاجلت باللذات قطع طريقه

ودعوت ألفاظ المديح وكأسه فنعمت بين حديثه وعتيقه

* * *

الباب الرابع
فى استعمالها على رأى الحكماء

قال الشيخ الإمام علاء الدين أبو الحسن على بن الحزم القرشى المتطبب المعروف بابن النفيس فى كتابه الموجز عندما ذكر تدبير المشروب وخير الشراب ما طاب طعمه وعطرت رائحته وصفا لونه واعتدل قوامه والعلامة الجيدة للشراب الجيد الخالى من الغش أنه إذا ترك منه المقدار القليل مدة طويلة لم يفسدوا بقدر طول المدة تعرف الجودة والرقيق اللطيف أسرع إسكارا وتخللا وأدوم خمارا لكنه يسمن وخصوصا الحلو ويختار للشبان والمحرورين الأبيض الممزوج قبل شربه على الكثير الماء وللمشايخ الأصفر القوى القليل المزج فإن أرادوا الاغتذاء والسمن فالأحمر، وإنما يستعمل الشراب عند انحدار الغذاء من المعدة.

وأما فى خلل الأكل أو عقبيه فصار يستعيره الغذاء على نجاحته على أن المعتاد به قد ينتفع باستعمال ما يعين على الهضم لا بمقدار ما يقوى التنفيذ وما دام السرور يتزايد واللون يحسن والبشرة تلين والجلد يربو والحركات نشطة والذهن سليما، فلا تخف من إفراط فإن أخذ النعاس يغلب والعقبان يقوى البدن والدماغ يثقل والذهن يتشوش والحركة تسرخى فقد وجب الترك وحينئذ يجب القيء والقيء على قليل منه ردىء لأنه يغصب من البدن ما ينفعه والشرب بالأقداح الصغار خير من الكبار والتبعيد بين الأقداح لينهضم الأول قبل ورود الثانى أحسن وينبغى أن يحف مجلس الشراب بالمنظر اللذيذ من الأزهار والمحبوبين من الناس والأرايح اللذيذة والسماع المطرب وغسل البدن والأطراف ولبس المشرق وتسريح اللحية والرأس وتقليم الأظفار وليكن المجلس مشرقًا فسيحًا بقرب المياه الجارية مع الظرفاء من الأصدقاء، وذلك لأ

الشراب يحرك قـوى النفس ويثير الشهوة فإذا لم تجـد كل قوة مطلوبها تأذت وانقبضت فلا تقبل النفس على الشراب كل القبـول ولا تتصرف فيه التصرف الواجب فيقل نفـعه وربما فسد فكان شـره أكثر من نفعه ومنـافع الشراب منها نفسية ومنها بدنية.

أما النفسية فلا يمكن أن يساويه فيها غيره وذلك كالسرور وبسط النفس وتفتح أملها وتشـجيعها وإزالة البخل والغم والفكر الفـاسد وهو أنفع الأشياء للماليـخوليا لتـفريجه المضـار وإيجاس السوداء ويحـسن الظن ويقوى الذهن لقـوى الدماغ لأن الدمـاغ لا ينفعل عن الحـدة والشراب المسكر بل عـن حره اللطيف فيصفو ذهنه صفاء لا يصفو مثله بغيره، فلذلك قوى الدماغ لا تسكر بسرعة وبسرة السكر وبطؤه تعلم قوة الدماغ وضعفه.

وأما البـدنية فإنهـا وإن أمكن أن تستفاد بـغيره من المعاجين والمركـبات وذلك يعسر كـتحسين اللون وإنارته وتبـريقه وإشرافه وتقوية الحـرارة الغريزية وإنعاشها وإضاج الرطوبات وتفتيح المجارى وإزالة سددها وتفتح المسام وتقوية الهضم وتلطف الروح وإرنـارتها وإنارة الدم وتنقيـته وإنضاج البلغم وتلطيـفه وإدرار الصفراء وترطيبها وتعديل مزاج السـوداء وقمع عادتها وإخراجها ونفعه يتعلق بالقوى الطبيعـية والحيوانية أكثر من القوى النفـسانية وإدامته تبلد الذهن وترخ العصب وتوهـى قوى الدماغ وتورث الرعـشة والتشنـج وكثيـرا ما يمت السكران بالسكتـة ولا بأس به فى الشهر مـرتين لإراحة قوى الدمـاغ والفصل والبلد الباردان محتملان كثرة الشراب وقوته والصرف محرق للدم مفسد لمزاج الدماغ والكبد ومهما أمكن ترك التنقل فهو أولى لكن المحرور قد ينتفع بالتنقل بمثل السفـرجل والرمان المز والتـفاح والكمثـرى والزعرور وأقراص الليـمون وحماض الأترج وشرابـه بل قد يحتاج إلى التنقل بأقراص الكافور كـما يفعل بالمدقوقين والمبرود بجـوارش التفاح والتمر والفستق المملح المـرطوب بالقضامة وزيتون الماء والفستق واللوز المملوحين.

والأشياء التى تبطئ بالسكر التنقل باللوز وخصوصا المر ونهايته خمسون لوزة تستعمل قبل الشراب وكذلك استعمال المدرات والثرائد الدهنية وإن أبطأت بالسكر لكنها تمنع كثرة الشرب والمسكرات بسرعة كالتنقل بجوز الطيب ونقعه فى الشراب وكذلك العود والشيلم وورق العنب والزعفران وكل هذه مسكرات مفردة.

وأما البنفسج واللفاح والشوكران والأفيون فمفرط وإنما يستعمل لمن يريد أن يعالج بماء لأنه يتحمله فى الصحو، ومما يذهب رائحة الشراب الكزبرة اليابسة والراسن والدار الصينى.

وأفضل ما مزج به الشراب الماء وقد يمزج بماء لسان الثور ليزاد تفريحه فهو مع ذلك يسر سرورا عظيمًا وقد يمزج بماء الورز فيقوى المعدة والقلب انتهى كلام ابن النفيس مع بعض اختصار منه ورأيت على حاشية بعض المجاميع بإزاء كلام ابن النفيس هذا هو الدر النفيسى فلا يحتاج ظريف للتأدب بغيره.

وقال الحكيم الفاضل محمد بن المجلى الشهير بالعنبرى فى كتاب النور المجتنا من رياض الندما، واعلم أن الإكثار من الخمرة يحدث الأمراض الباردة الرطبة كالسكتة والفالج واللوقة والرعشة والاسترخاء والسبات، هذا لمن مزاجه مستعد للبرد، فأما أصحاب المزاج الحار فإنها تولد لهم الحميات الحارة، ولا سيما إن وافقها غذاء حار وفصل حار ومزاج صرف.

والغرض من الخمرة أن يأخذ منها اليسير بعد الطعام بثلاث ساعات ومن أراد أن يطول جلوسه على الشراب فلا يستكثر من الرياضة والحمام ولا يمتلئ من الطعام وإذا كان الغذاء ظهرا وكان لشراب عصرا ولا بأس باستعمال النشوة والسكر فى الشهر مرتين، ويبدأ بالأقداح الصغار أولاً، وشم التفاح عند الشرب يسرع بالسكر وهو التفاح المعضوض، قال ومنه صفة تفاحة تسكر

سريعًا إذا شمت يؤخذ زعفران وميعة وخزاما وتفاح وقشور أصول البيروج ينعم سحقه ويعجن بشراب صرف عتيق وتتخذ منه تفاحة منقشة وتشم والمرمل مفردا ومع الشراب يسكر سكرا مفرطا ومن شرب خمس سعدات أو عشرة مسحوقة لم يسكر يومه، ويجب أ لا يفعل ذلك إلا صاحب المزاج البارد وأما المحرور فيجعل غذائه إذا أراد ذلك بالخل والسماق والحصرم وماء الليمون بلحوم الدجاج والجدا والخرفان ومص الرمان المز وأكل السمك الطرى بالخل والتنقل باللوز الحلو.

وأما ما يقطع رائحة الشراب من الفم فمن ذلك سعد وكبابة ودارصينى بالسوية يدق ويسف منه مثقال لا سيما بعد القيء المستقصى وسف الكزبرة والنعناع ومضغ العود الرطب وكذلك المعد وأكل البصل وكذلك الفوتنج المهرى إذا مضغ قطع رائحته انتهى كلام العنبرى ملخصًا.

وقال الشيخ كمال الدين فى حياة الحيوان فى الكلام على السمك أن السكران إذا شمه يرجع عليه عقله ويزول عنه سكره.

وقال التيفاشى فى كتابه سرور النفس بمدارك الحواس الخمس وهو عدة مجلدات أنى وجدت جل من يستعمل هذا المشروب لا يفى له خيره بشره ولا يقوم نفعه بضره وذلك لجهله بوجه استعماله فإن من المعلوم أن المقصود من شرب الخمرة منفعتان إحداهما راجعة للنفس وهى التفريح ونفى الهموم، والأخرى للبدن وهى حفظ صحته عليه ونفى الأمراض النازلة به ويتحقق عند كل من له أدنى مسكة من عقل أنها إذا استعملت على غير ما ينبغى انعكست هاتان المنفعتان مضرتين فصار عوض السرور هما وغما وضجرا وسوء خلق وعوض الصحة مرضا مزمنا أو موتا فجأة، إلا أنه لا يقتصر الأمر على عكس هاتين المنفعتين فقط، بل يتعدى إلى مضار أخرى عظيمة إن سلمت المهجة كذهاب العقل والمال والجاه والذكر الجميل، بل لا يقف الأمر على ذلك بل

يتعدى الأعقاب فإن الحكماء أجمعوا قطبة على أن مدمن الخمر لا ينجب وإن أنجب كان الولد أحمق. انتهى كلام التيفاشى مع بعض اختصار.

والروم تمدح الشراب الأحمر والفرس تمدح الأصفر والعرب تصف بدقة أفكارها ورقة طباعها كل لون بما يليق به ورأيت الشعراء قاطبة تتغالى فى وصف الراح بالقدم ولهم فى ذلك أشعار بديعة نوردها إن شاء الله تعالى فى موضعها.

ورأيت عامة الأطباء قالوا أن العتيق من الشراب يضر بالعصب وسائر الحواس فينبغى أن يتجنبه من كان فى أعضائه ضعف فالجديد نافخ عسر الانهضام مكثر البول ويولد أخلاطا رديئة قالوا خير الشراب المتوسط بين الحديث والعتيق ومن كلامهم الشراب لسنته والخبز ليومه واللحم لوقته، واختلفوا فى القدر الكافى منه فقال قوم حظ النفس فى رطل واحد، وقال قوم منهم المأمون ولد هارون الرشيد بل فى رطلين وأنشد:

رطلان لا أزداد فوقهما ... فى الشرب مع ندمان أو وحدى

فليعلمن من قد أنادمه ... أنى أحب عواقب الرشد

وأريد ما يقوى به بدنى ... وأجانب الأمر الذى يردى

وسيأتى للمأمون مذهب ثان هو أقرب إلى الصواب، وقال قوم منهم أبو نواس الحكمى بل أربعة أرطال وأنشد فى ذلك:

رأيت طبائع الإنسا ... ن أربعة هى الأصل

فأربعة لأربعة ... لكل طبيعة رطل

هذه عادة المقتصدين من أرباب الفن فأما من تجاوز هذه المقادير إلى حد السرف على نفسه وجسمه وعقله، فقال الرطل الخامس أسر والسادس أسوغ

والسابع أبهى والثامن أشهى والتاسع أطيب والعاشر أرطب إلى أن ينتهى إلى حالة غير مرضية، فذاك ذنب عقابه فيه حتى أن بعضهم لا يستفيق من شربها ليلا ولا نهارا، كما سيأتى بيانه فى المغرمين بشربها.

وما ألطف أبا نواس، وقد رأى رجلا سكران فصار يعجب منه ويضحك فقيل له ما يضحكك وأنت كل يوم مثله قال ما رأيت سكران قط قيل له وكيف ذلك قال لأنى أسكر قبل الناس ولا أفيق إلا بعدهم فلا أعلم حال السكارى بعدى وكان ابن هرمة مغرى بالنبيذ فمر فى بعض الليالى على جيرانه وهو سكران والصبيان يصيحون عليه تى دخل بيته فلما كان من الغد دخلوا عليه وعاتبوه، فقال والله لقد تطلبت هذه السكرة مدة حتى ظفرت بها، أما سمعتم قولى:

أسأل الله سكرة قبل موتى وصباح الصبيان يا سكران

فتركوه وانصرفوا عنه، ويحكى أن أبا الهندى كان منهمكا على الخمر مغرما بالشرب ودخل حانة خمار فشرب عنده إلى أن غلب عليه السكر فام ودخل جماعة فتيان فرأوه على تلك الحالة فقالوا للخمار ما حال هذا، قال طيب العيش، قالوا فألحقنا به فسقاهم حتى انتهوا إلى حاله فانتبه أبو الهندى فرآهم فقال للخمار ما حال هؤلاء فقال مبسوطون قال فالحقنى بهم فسقاه حتى لحق بهم وانتبهوا فقالوا له مثل ذلك إلى أن مضت عليهم عشرة أيام ولم يلتق بعضهم ببعض ثم أنشد أبو الهندى فى ذلك:

ندامى بعد عاشرة تلاقوا تضمهم الفتوة والسماح

رأونى فى السرور على وسادى يجاذب مهجتى ورد وراح

فقالوا أيها الخمار من ذا فقال أخ يلذ لى اصطباح

فقالوا قم وألحقنا وعجل بنا إنا لمصرعه تراح

وحـال تنبـهى فـسـألت عـنهم فـقـال أناخـهم قـدر مـتـاح
فـقـلت له فـسـرحنى إليـهم حـثـيـثـا فـالسراح هو الـنجاح
فـمـا إن زال ذاك الدأب مـنا إلى عـشـر نفـيق ونسـتـبـاح
نقـم مـعـا وليس لنـا تلاق ببـيـت مـالـنا عـنه بـراح

ولعمـرى إن فى هذا الأمر خروجًا عن الحـد، والذى يظهر لى أن ذاك يختلف باختـلاف الأشخاص والعادات والزمان والمـكان والساقى والنديم فلا يتقدر بمقدار ولا يتخصص بمعيار فـربما أسكر اليسير دون الكثير، وقال المأمون وقد سمع بعض ندمائه ينشد قول أبى نواس المتقدم:

رأيـت طبـائـع الإنسـا ن أربـعـة هـى الأصـل
فـأربـعـة لأربـعـة لـكل طـبـيـعـة رطـل

فـقال أخطأ أبو نواس إذا صح بدن الإنسـان فأكل وشـرب ما شـاء لم يضره، وإذا كان سقيما فالجـرعة الواحدة تؤذيه فضلا عن أربعة أرطال وأنشد بديها:

ألا قل لإخـوان المدام تسـمـعـوا فـإن كـلام النصح يـوعى ويسـمع
ثـلاثـة أرطـال لـذى الـلـب قـنـع وفـى أربـع أنـس لـه وتمـتـع
فـإن كان من تهـواه حـاضر شـربه فـحـقق عليـه خـمـسـة لا تضـيع
ويزداد رطـلا أن رأى منه عـطفـة فـيكمل عند السـتـة اللهـو أجـمع

وما ألطف بعـضهم وقد سـئل عن مقدار ما يكـفيه من الشراب فـقال بحسب النديم وفى ذلك يقول المفجع:

طيب لنديم يفوق طيب الراح ويحث شاربها على الأقداح

وإذا هما اجتمعا لنفس حلتا بمحلة الأرواح فى الأشباح

وقال بعضهم ما رأيت ألطف من الشراب فإنه يلائم الطباع المعتادة فى كل زمان من فصول السنة يشربه المحرور ممزوجا فيبرده والمبرود صرفا فيسخنه واليابس معتلا فيرطبه والمرطوب صرفا فيجففه وأحسن استعماله فى الصيف على خضرة الجنان وتحت الظلال وعلى المياه والورد والنسرين والبنفسج والآس والسفرجل والتفاح وفى الشتاء بخلافه فيكون فى الأكنان والفرش ولبس الأحمر والممسك وشم فتيت المسك والعنبر وفى الربيع والخريف بين ذلك لأخذهما من رطوبة الشتاء وحرارة الصيف وأحسن أوقات استعماله فى الشتاء من العصر إلى ثلث الليل وفى الصيف من بعد الظهر إلى العشاء الأخيرة، والعرب تسمى شرب الغداة صبوحا والعشية غبوقا ونصف النهار قيلا وأول الليل تخمة والسجر جاشر به، وإذا شرب الرجل فهو نشوان وإذا دب فيه الشراب فهو ثمل وإذا انتهى إلى وجوب الحد فهو سكران، فإذا زاد على ذلك فهو طافح وبالجملة فألطف ما يشرب على وجه السماء.

قال الوليد بن يزيد لابن شراعة أى المجالس أحب إليك يكون شربنا اليوم فيه، قال هل يشرب إلا على وجه السماء فوالله ما نادم الناس أصبح من وجهها.

وما ألطف جارية على بن الجهم وقد قال لها نجعل الليلة مجالسنا فى القمر فقالت له ما أولعك بالجمع بين الضرائر. قال فأى الشراب أحب إليك قالت ما ناسب روحى فى الخفة ونكهتى فى الطيب ريقى فى اللذة ووجهى فى الحسن وخلقى فى السلاسة قلت لعمرى إن فى لطف هذه العبارة لنشوة تسحر الألباب ويكاد يستغنى بعذوبتها عن لذيذ الشراب.

وقال يحيى بن خالد الأيام أربعة يوم الريح للنوم ويوم الغيم للصيد ويوم المطر للشرب ويوم الشمس لقضاء الحوايج.

وقال بعض مدمنى الشراب لا يقوم سرور العشى بمكروه خمار الغداة ولا يخلص المخمور من خماره غير الخمرة وفى ذلك يقول الأعشى:

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها

ليعلم من لام أنى امرء أتيت المروءة من بابها

وهنا حكاية لطيفة أوردها الحريرى فى كتابه المسمى بدرة الغواص أحببت أن أذكرها ههنا روى أن حامد بن العباس سأل وزيره على بن عيسى وكان فى ديوان الوزارة عن دواء الخمار فأعرض الوزير عن كلامه وقال ما أنا وهذه المسئلة فى مثل هذا المقام فخجل منه حامد وكان أبو عمرو قاضى القضاة حاضرا فتحرك ومكن جلوسه وتنحنح لإصلاح صوته ووضع كما على كم ثم قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. قال الله تعالى: «وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا». وقال النبى ﷺ: «استعينوا على كل صنعة بصالحى أهلها» والأعشى هو إمام هذه الصناعة فى الجالية وقد قال:

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها

ثم تلاه شاعر العرب مجنون ليلى فقال:

تداويت من ليلى بليلى من الهوى كما يتداوى شارب الخمر بالخمر

وتبعهما على ذلك أبو نواس فقال:

دع عنك لومى فإن اللوم إغراء وداونى بالتى كانت هى الداء

فتهلل وجه حامد لذلك وقال لعلى بن عيسى ما منعك يا بارد أن تجيب ببعض ما أجاب به قاضى القضاة وقد استظهر فى الجواب بقول الله ثم بقول

رسول الله ﷺ ثم بكلام العرب، ثم بقـول المولدين وبين الفتوى وأدى المعنى وخلص من العهدة، فـكان خجل على بن عيسى من حامـد أعظم من خجل حامد منه. ومن أحسن ما يتنقل به على شرب الراح الماء القراح والتفاح. قال بعضهم عجبت لمن يشرب الراح ويتنقل بالتفاح وينكح الملاح كيف يموت.

وقال بعضهم رأيت أبا واس وفى يده كأس خمر وعن يمينه عنقود عنب وعن يساره جفنة زبيب وكلما شرب قدحا تناول عنبة وزبيبة فقلت ما هذا قال ابن وأب وروح القدس والذى أقوله إن أحسن ما يتنقل به على الشراب رشف رضاب الأحـباب ومـا ألطف تضمين القـاضى محيى الدين بن عبـد الظاهر بقوله:

لقد قال لى إذ رحت من خمر ريقه أحث كـؤوسـا من ألذ مـقـبل

بلثم شـفـاه بعـد تقـبـيـل مـبـسم تنقـل فلذات الهـوى فى التـنقل

وأما مـا يؤكل عليه فـقال إبراهيم الموصلى أنفع الطعـام لصاحب المدام سكباجة تستعمل قبله وبعده ويمسك الشراب بينهما.

* * *

الباب الخامس

فيما يجب على مستعملها من حقوق المنادمة وآداب النديم

النديم مـأخوذ من المنادمـة، وقال بعض أهل اللغـة من الندم، إلا لأنه يندم على مفارقته لوجود الراحة والأنس، وإما لأنه يندم على ما يتكلم به فى حال سكره.

وتنقسم المنادمـة إلى قسمين أحـدهما إخبار بما يوافق خـبرا مسمـوعا، والثانى أخبار بما يوافق غرضا مفـتوحا كما ذكره فى سلوان المطاع فى السلوانة الأولى وينبغى له أن يـكون حسن البزة نبـيل الهمة نظيف الـكف نقى الظفر متعاهدا لتـقليمه وتخليل أصابعه وغـسل يديه ومعصميه وتسريـح لحيته عطر البشـرة نظيف الوجه والشارب والأنـف نقى الجبين مسـتعمـلا للسواك نظيف الثياب خصوصا عمامته لأن العين كـثيرا ما تقع عليها مسبول الذيول وأطراف الأكمام نظيف المخفى من الملبس كالقلنسوة والسراويل والتكة والخف والمنديل والكم متطيبًا بالبخور والغالية والروائح على الشـعر والثياب، فإذا كملت فيه هذه الخصال كان محبوبا إلى القلوب سهلا على الأرواح وإلا كان مستقلا فى العيون بغيضا فى النفوس كما قيل فى أبى يعلى الكاتب القرشى:

نعـــمـــة الله لا تـعـــاب ولـكن ... ربما اســـتـــقـلت على أقـــوام

لا يلـيق الـغنى بـوجـــه أبى يـعـ ... ـلا ولا نور بـخـجـــة الإســلام

دنس الثـــوب والعـمـــامـة والـبـر ... ذون والنعـل والقـفـــاز والغـــلام

وتختلف آداب المنـادمة باختـلاف المجالس فإذا كـان مثله أو قـريبا منه فالأولى إطراح التكلف وما يؤدى إلى حصر وضـيق، فقد قال ابن المعتز الحق فى المنادمـة ترك التـحفظ. وكـان يقـال أن من الأدب ترك الأدب عند من لا

تحتشمه وتهابه وقلة الخلاف والمعاملة بالإنصاف والمجامحة فى الشراب والتغافل عن رد الجواب وإدمان الرضا وإطراح ما مضى واستعمال ما حضر وإحضار ما تيسر وستر العيب وترك العتب والطرب بلا هرج ولا صياح، وترك الافتخار بالحسب والنسب، وأما من نهابه ونخافه كالملوك والخلفاء والأمراء والوزراء، فإن لها شرائ صعبة ومسالك ضيقة ينقبض الخاطر عند سماعها فضلا عن مشاهدتها وعيانها وهى أن يجلس فى مرتبته بحسن أدب وسكون جاث من غير اتكاء ولا استناد إلى جدار أو مخدة ولا عبث بثوب ولا لحية ولا يظهر شيء من قدمه ولا خفه إن كان لابس خف.

ولا يستعمل تدليك اليدين وفرقعة الأصابع واللعب بالخاتم والتثاوب وينهض لنهوضه ويجلس لجلوسه ويدنو إذا ساتدناه ولا يبتدئ الملك بكلام ولا يستعيده منه، وإذا سأله نهض قائا على قدميه وأجاب بأوجز عبارة وألطف إشارة، ثم لا يجلس حتى يأذن له ولا يكن من شأنه التعزية ولا التهنئة ولا يشمت عند العطاس ويترك التبختر والعبث بالفاكهة والرياحين والأأهار والتناول للشمامات والإكثار من التنقل على الشراب ولا يعض الفاكهة والرياحين عضا بل يقطع منها حاجته بالسكين قطعًا ولا يكثر شم الأزهار والرياحين ولا يدير اليد فيه ولا قطع رأيه ولا ينفضه عند أخذه ولا يستحث الشراب ما لا يطيق فيزول عقله وليقتصر على ما يعلم أنه يقوم به فإذا أحس من نفسه بالسكر أسرع إلى القيام وانصرف وهو يملك نفسه فربما زل لسانه أو ذهب عقله وجنانه فغاب عن التوفيق وخاطب الملك بما لا يليق وكان سببًا لهلاكه بمداومته على الشراب وانهماكه. وقد قال عبد الله بن المعتز:

يموت الفتى من عثرة بلسانه ... وليس يموت المرء من عثرة الرجل

فعثرته من فيه ترمى برأسه ... وعثرته بالرجل تبرا على مهل

ويقال أن أول من جعل لندمائه أمارة ينصرفون بها من مجلسه إن أراد كسرى أنوشروان، وذلك أنه كان يمد رجله فيعلمون أنه يريد قيامهم فينصرفون وتبعه الملوك على ذلك، وكان فيروز يدلك عينيه وبهرام يرفع رأسه لى السماء، وكان فى الإسلام معاوية يقول العزة لله وعبد الملك بن مروان يلقى المحبرة من يده.

قلت: ومن ذلك ما يفعله القضاة فى زماننا هذا من غلق الدواة، ويحكى أنه قيل لبعض البخلاء أن لكل رئيس علامة ينصرف بها ندمائه فما علامتك قال إذا قلت يا غلام هات الطعام والأدب مع الملك ومن يقاربه من أعيان الملك إذا نام أن يتنحى جلساؤه فيكونون بموضع يقرب منه ولا ينصرفون عنه بل يلحظونه بأعينهم حفظًا له ولا يتكلمون خشية من انتباهه وقد حكى أن الرشيد وكل جماعة من أهل العلم بملازمة ابنه المأمون وهو غلام فبات عنده الحسن بن زياد واللؤلؤى فبينما هو يحادثه إذ نعس المأمون فقال له الحسن نمت أيها الأمير فاستيقظ وقال سويقى ورب الكعبة، ثم قال يا غلام خذ بيده فأخرجه وبلغ ذلك الرشيد فاستصوبه وتمثل بقول الشاعر:

وهل ينبت الخطى إلا وشيحة ويغرس إلا فى منابتها النخل

ومن مستحسن الأخبار فى ذلك ما قيل أن قطر الندى بنت خمارويه بن أحمد بن طولون لما زفت إلى المعتضد بالله أحبها حبًا شديداً وأنه وضع يومًا رأسه فى حجرها فنام فتلطفت فى إزالة رأسه من حجرها ووسدته وخرجت من البيت، فلما استيقظ ناداها فأجابته من قرب فقال أسلمت نفسى إليك فذهبتى عنى فقالت والله لم أزل كالفة لأمير المؤمنين. قال فما أخرجك عنى قالت إن مما أدبتنى به أنى لا أجلس مع النيام ولا أنام مع الجلوس فاستحسن ذلك منها وينبغى أن يكون له مع شرف الملوك تواضع العبيد ومع عفاف النساك مجون الفتاك ومع وقار الشيوخ مزاح الأحداث لأنه مضطر إلى كل

واحدة من هذه الخصال فى حـالة لا يحسن فيها غيـرها ويحتاج أن يجمع له من قوة الخاطر ما يفهم به ضمير الرئيس الذى ينادمه على حسب ما يبلوه من خلائفه وتعلمـه معانى لطفه وإشارته على أنه كـان من الخلفاء والأمراء من لا يستـعمل هذه الشرائط ويجرى مع ندمـائه مجرى الأكفـاء والأقران، بل ربما خدم ندمائه وغلمانه بنفسه فإذا انتهى مجلس اشراب عاد إلى هيبته وعظمته.

قال رجـاء سهرت ليلة عند عـمر بن عبد العـزيز فغشى المصـباح ونام الغلام فقلت يا أمير المؤمنين لو أذنت لى أن أقوم لأصلـحه. قال عمر بن عبد العزيز يا رجاء ليس مـن مروءة الرجل أن يستعمل ضـيفه، ثم حط رداءه عن منكبه وانتهض قـائمًا فصب فى المصباح زيتًا وأصلح الفـتيلة ومسح يده، ثم رجع وأخذ رداءه وجلس وقـال قمت وأنا عمر وجلست وأنا عـمر فرحم الله تعالى روحه الطاهرة.

وحكى عن يحـيى بن أكتم قـال بت ليلة عند المأمون فـانتبـه فى بعض الليل فظن أنى نائم فـعطش ولم يدع الغلام لئلا أنـتبه، وقـام متسللا خـائفًا هاديًا فى خطاه حتى أتى البـرادة فشرب ثم رجع وهو يخفى صـوته كأه لص حتى اضطجع وأخذه سعال فرأيته يجمع كمه فى فمه كيلا أسمع سعاله وطلع الفجر فـأراد القيام وقد تناومت فصـبر إلى أن كادت تفوت الصلاة فـتحركت فقال الله أكبر يا غلام نبه أبا محـمد فقلت يا أمير المؤمنين رأيت بعينى جميع ما كان الليلة من صنيعك ولذلك جعلنا الله لكم عبيدا وجعلكم لنا أربابا.

وينبغى أن يكون ذهنه وعقله وإصغاؤه ومـجاميع قلبه كلها مع الملك لا يتشاغل عنه ولا يلتفت إلى غيره مصغـيًا لكلامه ثابت الرسوخ متمكن العقل إلى غيـر ذلك من المسالك الضـيقـة ولكن هذا كله فى زمن المتقـدمين، وأما زماننا هذا فالذى بلغنا أن مجالس أحـد الناس من التجار والعوام مثلا ألطف ذاتًا وأكثر آدابًا من مجالس الملوك والوزراء والكتاب والله أعلم.

نادرة: بينا أبو العباس السفاح يحدث أبا بكر الهذلى إذ عصفت الريح فرمت طشتًا من سطح إلى المجلس فارتاع من حضر ولم يتحرك الهذلى ولم تزل عينه ملاحظة السفاح فقال ما أعجب شأنك يا هذلى. فقال إن الله تعالى يقول ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه وإنما لى قلب واحد فلما غمره السرور بحضرة أمير المؤمنين لم يكن فيه لحادث مجال فلو انقلبت الخضراء على البيضاء ما أحسست بها فقال السفاح لئن بقيت لأرفقن معك ضبعًا لا تطيق به السباع ولا تنحط عليه العقبان.

وقال الشعبى أخطأت عند عبد الملك أربعًا حدثنى بحديث فاستعدته فقال أما علمت أنه لا يستعاد أمير المؤمنين وقلت حين أذن لى أنا الشعبى فقال ما أدخلناك حتى عرفناك وكنيت عنده رجلا فقال أما علت أنه لا يكنى أحد عند أمير المؤمنين وسألته يكتبنى حديثًا فقال إنا نكتب ولا نكتب.

وعطس الرشيد يوما فشمته الأصمعى فتكلف الرشيد الرد عليه فلما خرج عاتبه الفضل بن الربيع فشكاه الأصمعى إلى الرشيد فقال أصبت السنة وأصاب الأدب.

وينبغى للنديم أن يكون فصيحًا بليغًا عالمًا مغنيًا فيجرى مجرى إبان اللاخفى بما وصف به نفسه للفضل بن يحيى البرمكى وذلك أنه ورد على أبوابه ليعرض نفسه وأدبه عليه فأتى محمد بن بردان الثقفى وقال له إن رءيت أصلحك الله أن تعرض قصتى على الأمير قال وما فيها قال أعرض نفسى وأدبى عليه. قال عند الأمير مائة ألف مثلك فأتى منصور بن هاشم وسأله عن ذلك فقال له منصور فهل لك فيمن دون الأمير ونشاطرك الضياع والأموال والرقيق قال قد نازعتنى نفسى إلى شىء لابد أن أعطيها شهوتها منه فتناول قصته وقدمها للفضل بن يحيى فإذا فيها:

أنا من بغية الأمير وكنز ... من كنوز الأمير ذو رباح
كاتب حسب أديب خطيب ... ناصح زاهد على الفصاح
شاعر مفلق أخف من الر ... يشة لما تكون تحت الجناح
لى فى النحو فطنة ونقاد ... أنا فيه قلادة لوشاح
لحية سبطة ووجه مليح ... وانقاد كشعلة المصباح
وكثير الحديث من ملح النـ ... ـاس بصير بخافيات ملاح
كم وكم خبأت عندى حديثًا ... هو عند الأمير كالتفاح
أيمن الناس طائرًا يوم عيد ... فى غداة وغدوة ورواح
أعلم الناس بالجوارح والخيـ ... ـل وبالخرد الحسان الملاح
كل هذا جمعت والحمد للـ ... ـه على أننى ظريف المزاح
لست بالناسك المشمر كمـ ... ـيه ولا الفاتك الخليع الوقاح
لو دعانى الأمير عاين منى ... سمرا كالجلجل الصياح

قال فدعى به فلما دخل أتى كتاب من أرمينية فرماه إليه وقال له أجب عنه فأجاب من ساعته فأمر له بمائة ألف درهم وكان أول داخل وآخر خارج وركابه محاذيا لركابه.

وفاخر كاتب نديمًا فقال أنا معونة وأنت مؤنة، وأنا للجد وأنت للهزل، وأنا للحرب وأنت للسلم، وأنا للشدة وأنت للذة. فقال له النديم: أنا للنعمة وأنت للخدمة، وأنا للحضرة وأنت للمهنة تقوم وأنا جالس، وتحتشم وأنا مؤانس، تذب لراحتى وتشقى لما فيه سعادتى، وأنا شريك وأنت معين، كما أنك تابع وأنا قرين.

ولما كان مجلس الشراب موضوعًا للاستكثار من اللذات فالأولى أن يجمع من الندماء من اتصف بالحذق واليقظة والأشعار والآداب والنوادر وأنواع المغنا والطرب، فيكون للحديث نوبة وللغنا أخرى.

وحكى عن بشار أنه قال: لا تجعلوا مجلسكم حديثًا كله ولا غناء كله ولا هزلا كله ولا جدا كله، ولكن تارة وتارة فإن العيش خلس.

وقال إبراهيم بن المهدى لذة العيش فى ثلاث: منادمة الأحباب ومعاقرة الشراب ومذاكرة الآداب، ولكن كرهوا الأحاديث الطوال وأمروا بالإيجاز والاختصار. قال العطوى:

إذا حدثت فاكس الحديث الـ ـذى حدثته ثوب اختصار
فما حث النبيذ بمثل شدو الأ غانى والأحاديث القصار

وقال ابن المعتز:

وندامى فى شباب وحسن تلفت ما لهم نفوس كرام
بين أقداحهم حديث قصير هو سحر وما سواه كلام
وغناء يستعجل الراح بالرا ح كما ناح فى الغصون الحمام
فكأن السقاة بين الندامى ألفات بين السطور قيام

وتلطف يزيد بن معاوية إلى الغاية بقوله:

ولى وله إذا الكاسات دارت وفى سحر تحل عرى الهموم
محادثة ألذ من الأمانى وبث جوى أرق من النسيم

وقال أبو نواس:

لا يطيب الشـــراب إلا لقـــوم جـــعلوا نقلهم عليـه الوقـــارا

فـهـمـو يسمـعـون صـوتًا إذا مـر وا تنـاشـــــدوا الأشـــعـــــارا

لا كـقـــوم فى ضـجـة وصـيـاح كنهـيق الحـمـــار لاقى الحـمـارا

ومن أدب النديم أن يكتب أحـسن ما يسمع ويـحفظ أحسن مـا يكتب ويورد أحسن مـا يحفظ فهذا هو لب اللب وأن لا يتـعاطى كلامًا أجنبـيًا عن المقام فالناس يقولون لكل مقام مقال. قال أبو نواس:

وإذا جلست إلى المدام وشربها فاجعل حديثك كله فى الكاس

ضمنه ابن أبى حجلة فى مليح معذر فاستحقه بزيادة التورية فى قوله:

يا صاح قد حضـر الشراب ومنيتى وحظيت بـعـد الهـجـر بالإيناس

وكسى العـذار الخد حسنًا فـاسقنى واجـعـل حـديثك كلـه فى الكاس

وأما أواسط الناس فـينبغى أن لا يستكثـروا من الندماء ويقتـصروا على القليل فإن الكثرة سبب إذهاب المال ووجود العداوة فربما لا يقدر على رضاهم وفقدان المسرة وتعب القلب والجسم:

وإذا صفا من زمانك واحد فهو المراد وأين ذاك الواحد

ويعجبنى قول بعضهم:

ومـــا بقـــيت من الـلذات إلا مـحـادثة الرجـال ذوى العـقـول

وقـــد كـانوا إذا عـــدوا قليـــلا فـقـــد صـاروا أقـل من القليل

وينبغى أن لا يصطفـى نديمًا حتى يختـبره بأن يسأل عنه من صـديقه أو خليله أو رفيقه كما قال بعضهم:

إذا مـــا أردت إخـــاء امـــرئ　　فـــسل كـيف كـان لإخـــوانه

فـإمـا رضـيت فـأحـبـبـتـه　　وإمـــا تـرغـــبت عن شـــانه

ثم بعد ذلك تجـربه بأن تغضبه فى الصـحو فإن وجدته حمـولا مطاوعا قبولا لما تأمره به يصفى وداده حاضرًا وغائبًا مـساعدًا لك فى الشدائد فلتعتمد عليه فقلما يوجد هذا النديم وفى هذا المعنى:

إذا كنت مختـارًا لنفـسك صاحـبا　　فمن قـبل أن تبدءه بالود فـاغضبه

فإن كـان فى حال التـعدى راضـيا　　وإلا فـقـد جـربـتـه فـتـجنبـه

والناس مختـلفون فى الشرب فمنهم من يرى الانفـراد ومطالعة الكتب وإعمال الفكر فى تصنيف العلوم والآداب كـما حكى عن الرئيس ابن سينا أنه قال كنت أستعين على مـصنفات علومى باستعمال اليسـير من الخمر المصلوح بالماء وفى هذا المعنى يقول بعضهم:

من على يـسـرنى خـزانة خـمـر　　وعلـى يمنـتى خـــزانة كـــتب

فـإذا مـا طربت أعـملـت كـاسى　　وإذا مـا صـحـوت أعـمـلت قلبى

وممن يرى الانفـراد أيضًا الفـارابى وله فى ذلك أبيات مـشهـورة آثارت حذفها لعدم انسجامها ودقتها.

قال أبو العينا: رب وحدة أنفع من جليس ووحشة أمتع من أنيس.

وقال بعضـهم: رأيت أعرابيًا جالـسًا تحت ظل شجرة ومـعه ركوة وهو يشرب قدحًا ويصب فى أصل الشجرة قـدحًا فقلت له ما هذا؟ قال: هو نديم لا يعربد على يمنحنى ظله ويحمل عنى كله.

ودخل محمد بن حرب على العنانى فوجده يشرب وبين يديه كلب صيد وهو يشرب قدحًا ويصب للكلب قدحًا، وكلما أكل طعاما أو نقلا رمى إلى الكلب منه. فقال له أتنادم كلبًا قال نعم يكف عنى أذاه ويحرسنى من أذى سواه، يشكر قليلى ويحفظ مبيتى ومقيلى، وهو من بين الأنام خليلى. قال ابن حرب فتمنيت والله أن أكون كلبًا لأحوز منه النعت وأنشد فى المعنى:

وأشرب وحدى من كراهيتى الأذى مخافة شر أو سباب لئيم

وما أحسن قول الشيخ صفى الدين الحلى:

إذا لم أجد للراح خلا موافيا فلى بى أنس كامل حين أشرب

لسانى يغنينى وفكرى منادمى وكفاى تسقينى وقلبى يطرب

ومنهم من يرى اجتماع الندماء واختلفوا فى ذلك فمنهم من يختار واحدًا لأنه أقل ما يحصل به الغرض فلا يتجاوز إلى غيره فيصير المجموع اثنين ويسمونهما منشارًا، ومنهم من يختار اثنين فيكون المجموع ثلاثًا فربما قام أحدهم لحاجة فيجد الآخر من يؤانسه. وأنشدوا فى المعنى:

خلان لى أمرهما عجيب كلاهما لخله مجيب

مالى من نجواهما نصيب كأننى بينهما غريب

ومنهم من يقول أربعة فربما تحدث أحدهم مع الآخر فيجد الآخر من ينادمه.

قلت: وهذا هو القدر المتفق عليه. قال بعضهم: من زاد فى الندماء على أربعة فقد فوت على نفسه السرور وضيعه.

وسئل إسحق النديم عن الندماء فقال واحد هم، واثنان غم، وثلاثة نظام، وأربعة تمام، وخمسة مجلس، وستة زحام، وسبعة جيش، وثمانية عسكر، وتسعة اضرب طبلك، وعشرة ألقى بهم حيث شئت.

وبعضهم يقول: ثلاثة ندمان وأربعة بستان وخمسة مارستان إلى غير ذلك من العبارات الظريفة والإشارات الطيفة والذى أقوله أن هذه أمور نسبية وخيالات وهمية فقد يوجد صفاء العيش مع الكثير ويفقد مع اليسير لا بد فى بيان ذلك من تقديم مقدمة وهى أن الخمر ليست مقصودة لذاتها ولا مقصورة على لذاتها بل هى وسيلة لنيل المطلوب والفوز بلقاء المحبوب كما قال الحلى:

ثنت شمائله كاس الشمول فما قابلت مغتنما إلا لقبلته
فالشكر للسكر لولاه لما ظفرت كفى بتسهيل صعب من عريكته

وقال آخر:

جهلت على الحبيب لفرط سكرى فقبلت الثنايا والمحيا
رشفت رضابه أغى رشادا على كلفى به فازددت غيا
وما درت الوشاة بنا لأنى نهبت العيش فى جاه الحميا

إذا علمت ذلك فبعيد على من له ذوق سليم أو طبع مستقيم أن تتوق نفسه بعد حصوله على الحبيب بحضور واش أو رقيب فالغيرة عند أهل الأشواق معروفة وفى أمثالهم موصوفة. قال يزيد بن معاوية:

أغار على أعطافها من ثيابها إذا لبستها فوق جسم منعم
وأحسد شربات تقبلن ثغرها إذا وضعتها موضع اللثم فى الفم

وقال جمال الدين بن مطروح:

فلو أضحى على تلفى مصرا لقلت معذبى بالله زدنى
ولا تسمح بوصلك لى فإنى أغار عليك منك فكيف منى

وقالت حفصة المغربية:

أغـار عليك من غـيـرى ومنى ومنك ومن مكانك والـزمـان

ولو أنى خـبـئـتك فـى عـيـونى إلى يوم الـقـيـامـة مـا كـفـانى

وقال سراج الدين الوراق:

أغار عليه من ضميرى فياله هوى رابنى حتى اتهمت جوارحى

وقال ابن نبهان:

إنى أغـار من النسـيم إذا سـرى يا ريح عـرفك خـشـيـة من ناشق

وأود لو أسـهـدت لا من عـلة حـذرا عليك مـن الخـيـال الطارق

وقال الشيخ برهان الدين القيراطى وبالغ:

وتركى اللحـاظ تروم قـتـلى عـقـارب صـدغـه فـأقـول رومى

ومن شـغـفى بحـسن القـد منه أغـار على الغـصـون من النسيم

وكأنى بمنتقد يقول إن فى اجتـماع الإخوان واللطفاء من الندمان ما يولد الأفـراح ويطيب به شـرب الراح فـأقـول له أين أنت من قـول صـفى الدين الحلى:

أدم يـا رب خلـواتى بـحـبـى لأقـضى بالـتـواصل منه دينى

ولا تجـعل هنـاك سـوى لسـانى سـفـيـرًا بين أحـبـابى وبينى

وإن قـدرت إنسـانـا يرانـا بحـقك فليكـن إنسـان عـينى

وقال النجيب بن الدباغ:

يـا رب إن قـــــدرتـه لمـقـــــبـل غـيــرى فلمســواك أو للاكـؤس
وإذا حكمت لـنا بصـحـبــة ثالث يا رب فليك شــمـعـة فى المجلس
ولئن قــضـيـت لنا بعين مــراقب يا رب فلتك مـن عـيـون النرجس

بل لم يصبر بعضهم على وقاحة عيون النرجس فقال:

غضى جـفونك يا عـيون النرجس فـعـسى أفـوز بقـبـلة من مـؤنسى
فلقــد تحـيـر إذ رآك شــاخـصــا ترمـــينه بـلواحظ المتــفــرس

وقال الصفى الحلى:

أقول وطرف النرجس الغض شاخص إلينا ولـلنمـــام حـــولـى المام
أيا رب حــتى فـى الحــدائق أعين علينا وحـــتى فـى الرياحـين نمام

وما ألطف قول مجير الدين بن تميم:

كـيف السـبـيل لأن أقـبل خـد من أهوى وقـد نامت عـيـون الحـرس
وأصــابع المـنشــور تومى نـحــونا حـسدا وتغـمـزها عيـون النرجس

وألطف منه قوله:

كـيف السـبـيل للثم من أحـبـبـتـه فى روضـة للزهـر فـيـهـا مـعـرك
مــا بين منـثـور ونـاضــر نرجس مع أقــحــوان وصــفــه لا يدرك
هذا يشــيــر بإصـبـع وعـيــون ذا ترنـوا إلى وثغـــر هذا يضـــحك

فليت شعرى من لا يصبر على عيون النرجس غـيره على حبيبه ما حال قلبه بمعاينة واشيه ومشاهدة رقـيبه ولولا خشية الإطالة لملأت الأوراق بإيضاح

هذه الدلالة وحينئذ فقول إسحق واحد هم واثنان غم إلى آخره إنما هو اعتبار الأعم الأغلب وحيث لم يكن حبيب (فمن لم يجد ماء تيمم بالترب) وأما إذا كان الحبيب موجودا فكل الصيد فى جوف الفرا لا سيما إذا كان حسن الصوت والفكاهة والمحاضرة فطلب المزيد عليه من أعظم المفاسد:

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

بل ربما استغنى عن مجلس الشراب برشف ثناياه العذاب وأحسن ما قال بعض اللطفا فيه:

خداه وردى والعذار بنفسجى والريق خمرى واللواحظ نرجسى

فكأننى من خده وعداره ورضابه ولحاظه فى مجلس

وتلطف إبراهيم المعمار فقال:

إذا كان شربى من سلافة ريقه غنيت به عن خمر كاس وإبريق

ومنه غذاءى لست أختار غيره طعاما وحسبى أن أظل على الريق

وقال ابن الزين لبيكم:

وجعلت غصن قوامه لى شمعة فى مجلسى وخدوده تفاحى

ومن اللواحظ نرجسى وعذاره آسى ومعسول المراشف راحى

والوجه بدرى والثنايا أنجمى والشعر ليلى والجبين صباحى

وأقول يا قلبى لقد نلت المنى جمع الحبيب مجالس الأفراح

ويعجبنى قول أبى العلاء المعرى:

يقول فى البستان للعين نزهة وفى الراح والماء الذى غير آسن

إذا شئت أن تلقى المحاسن كلها ففى وجه من تهوى جميع المحاسن

وألطف منه قول الشيخ برهان الدين القيراطى:

أباح لى نرجس ألحاظه فى مجلس ما فيه ما نكره
قلت ورد الخد جد لى به أيضًا فقال الكل فى الحضره

وتلطف ابن عبد الظاهر بقوله مضمنًا:

لقد قال لى إذ رحت من خمر ريقه أحث كؤوسا من ألذ مقبل
بلثم شفاهى بعد تقبيل مبسمى تنقل فلذات الهوى فى التنقل

ولنرجع إلى ماكنا فيه، واعلم أن الخمر مستقر للرجال وهو محرك العقول يحرك ما يجد من خير وشر ويبرزه من القوة إلى الفعل فينبغى أن يعتزل فى الشراب الحمقى والسفهاء والجهال وفى ذلك يقول أبو نواس:

والخمر قد يشربها معشر ليسوا إذا عدوا بأكفائها

وقال آخر:

الكاس يظهر ما لابست من دنس إذا تمشت حميا الكأس فى الراس

وقال آخر:

على قدر عقل المرء فى حال صحوه يؤثر فيه الخمر فى حال سكره
فيأخذ من عقل كثير أقله ويأتى على العقل اليسير بأسره

وقال آخر:

وقد تعرف الجهال من حلمائنا إذا ما تعاطينا الكؤوس تعاطيا
تزيد حمياها السفيه سفاهة وتترك ألباب الرجال كما هيا
وجدت أقل الناس عقلا إذا انتشى أقلهم عقلا إذا كان صاحيا

وقال آخر:

لا تشـرب الراح إلا مـع أخ ثقـة واختـر لنفسك حـرا طيب السلف

فالراح كـالريح إن مرت على عطر طابت وتخبث إن مـرت على الجيف

وقال عمارة بن حمزة الهندى يا أمير المؤمنين ما منعك من مجالسة والية ابن الحباب الأسدى فـإنه رقيق الشعر ظريف عربى شريف قـال الذى سبقنى بقوله:

قلـت لسـاقـينا عـلى خـلوة أدن كـذا رأسـك من راسـى

ونم وضع صـدرك لـى سـاعـة إنى امـرء أنـكح جـلاسـى

وقال المأمون الشراب ستر فانظر مع من تهتكه، وقالوا ثلاثة لا يجالسون النديم: المعربد والمغنى البـارد والجليس الثقيل. قال النظام إذا علم الـثقيل أنه ثقيل فليس بثقـيل. وقال الجمار حرم الشراب على ثلاث عشـر شخصا: من غنى الخطأ، ولحن المغنى، والـذى يتكئ على اليمين، والمـستكثـر من النقل، ومن كسـر الزجاج، وسرق الريحان، وبل مـا بين يديه وقطع الكلام وحبس أول قدح، وطلب العشاء وأكثر الحديث والمتمخط فى منديل الشراب، وبائت فى موضع لا يحتمل المبيت.

وقـال أبو نواس: الكرم ثلاثة عناقيـد: عنقـود التذاذ، وعنقـود سكر، وعنقود عربدة. قال بعضهم:

لا تسقـنى الكاس إلا وهى متـرعة لكى ترى حـسن أقـوالى وأفعـالى

ومـا أعـربد فى الدنـيـا على أحـد إذا سكرت بـهـا إلا على مـالى

وقال بعـضهم عـلامة الكريم إذا أخذ مـنه الشراب الاستـحيـا والتودد

والفرح والسرور، وبذل ما فى يده فإذا أخذته أريحية الجود هزته نشوة الطرب، فإذا بلغ النهاية فى شربها توسد يساره ونام حميداً كريمًا ومن علامات اللئيم الممارة والسفه والترفع والتكبر وقتل الشارب والتلفت إلى العربدة وشدة الطيش فصاح وناح، وربما بكى وعوى عوى الذئاب ونبح نبيح الكلاب، فهذا الماء يحرم عليه، فكيف الشراب وفى المعنى الأول يقول عنيترة:

وإذا سكرت فإننى مستهلك ... مالى وعرضى وافر لم يكلم

وإذا صحوت فما أقصر عن ندى ... وكما علمت شمايلى وتكرمى

وقال غيره:

وإذا سكرت وهبت ما ملكت يدى ... من غير إملاق ولا إشفاق

وإذا صحوت وعاودتنى همتى ... أصبحت ندمانا لترك الباقى

وفى المعنى الثانى يقول صاحبنا المولى الفاضل شهاب الدين الحجازى:

فى حندس الليل أتانا فتى ... ونادم القوم فبئس النديم

فقلت للأصحاب لما أتى ... قد جاءنا فى جنح ليل بهيم

وقال أبو نواس:

الخمر طيبة وليس تمامها ... إلا بطيب خلائق الجلاس

وقال آخر:

لا تشرب الراح إلا مع أخ ثقة ... إن سر غنا وإ غنيته طربا

يعطيك صمتا إذا حدثته وإذا ... شربت حيا وإن حبيته شربا

يزيده الراح طيبا والغنا طربا ... والسكر عقلا وإسماع إلا ذا أدبا

فاشدد يديك عليه إن ظفرت به ... وأكثر مودته لا تكثر الذهبا

وما أحسن ما قاله الأديب الفاضل أبو عبد الله محمد بن الرفا الرصاف وقد مر بروضة فتذكر جلوسه فيها مع رفقة كانوا أعزاء على قلبه:

سلى خـمـيلتك الريا بأية مـا كـانـت تزف بهـا ريحـانة الأدب
عن فـتـيـة نزلت أعلى أسـرتهـا عـفت مـحـاسنهم إلا مـن الكتب
مـحـافظين على الـعليـا وربـة مـا هزوا السـخـايا قليـلا بـابنة العنب
حتى إذا ما قضـوا من كاسها وطرا وضـاحكوها إلـى حـد من لطرب
راحوا رواحـا وما زيدت عـمايمهم إلا التفات الصـبا فى ألسن العذب

وما أحسن تشبيه السرى الرفا الموصلى:

وفـتـيـة زهـر الآداب بينـهم أبـهى وأبـهج مـن زهر الـرياحـين
مشوا إلى الراح مشى الرخ وانصرفوا يمشـون من شربهـا مشى الفـرازين

وينبـغى أن يتحـمل المكروه والأذى ويتـصف بالحلم والوقار كـما قـال بعضهم:

إذا ما شربت الراح أبدت محاسنى وجادت بما حـازت يداى من الوفر
وإن سبـنى جـهـلا نديمى لم أزد على الشرب سقاك الله طـيبة النشر

وقال بعضهم أيضًا:

يخـاطبنى السـفـيـه بكل قـبح وأكـره أن أكـون له مـجـيـبـا
يزيـد سـفـاهة وأزيد حـلمـا كـعـود زاده الإحـراق طـيـبـا

ومما يجب على ذوى الرياسة والمروءة أن يسامـحوا نديمهم إذا وقعت منه هفوة وغفلة بل يبسطون له العذر من غير تعنيف ولا عتب وفيه يقول خالد:

ولست بلاح لى نديما بزله ولا هفوة كانت ونحن على الخمر

وقال كثير عزة:

ومن لم يغمض عينه عن صديقه وعن بعض ما فيه يمت وهو عاتب

ومن يتتبع طالبًا كل عثرة يجدها ولا يسلم له الدهر صاحب

وعربد فتى من بنى هاشم على ندمائه فأراد عمه معاقبته فقال يا عم إنى زسأت وليس معى عقلى فلا تسىء ومعك عقلك، وطويت بساط الشراب على ما فيه من خطأ وصواب. وقال المأمون: مجلس الشراب يستوى فيه الكبير والصغير والرفيع والوضيع والحر والعبد وهو بساط يطوى فمتى طوى لم ينشر أبدًا. قال بعضهم:

إنما مجلس الشراب بساط فإذا ما انقضى طوينا بساطه

وحضر بعض اللطفاء مجلس شراب فعربد وعليه عمامة فضاعت عمامته فلما أصبح طلب العمامة من الحاضرين فقالوا له أما سمعت قول الشاعر:

إنما مجلس الشراب بساط فإذا ما انقضى طوينا بساطه

فقال صاحب العمامة اشتهى أن تبسطوا لنا هذا البساط حتى تأخذ عمامتى وبعد ذلك اطووه فضحكوا منه وأعطوه عوضها وإذا كان بساطه يطوى فينبغى لمن حضره أن لا يتحدث بما وقع فى مجلس الشراب ولا يفوه بشىء منه فإن فيه من المفاسد ما لا يحتاج إلى إقامة شاهد قال بعضهم:

إن الشراب له شرط سمعت به أن لا يعاد حديث السكر فى الصحو

وتلطف بعضهم بقوله:

ما يكتم السر إلا كل ذى ثقة وذاك عند خيار الناس مكتوم
فالسر عندى فى بيت له غلق ضاعت مفاتيحه والباب مختوم

وبالغ الخطير بن زكريا:

وأكتم السر حتى عن إذاعته عن المسير به من غير نسيان
وذاك أن لسانى ليس يعلمه قلبى بسر الذى قد كان ناجانى

ولكن اعتذر بعضهم عن ذلك بألطف عبارة، وقال:

وما السر فى الأحرار إلا وديعة ولكن إذا رق الشراب فمن يقوى

وأجاد أبو نواس بقوله:

ولما شربناها ودب دبيبها إلى موضع الأسرار قلت لها قفى
مخافة أن يسطو على شعاعها وتظهر ندمانى على سرى الخفى

وينبغى للنديم أن يكون أطوع للجماعة من فعلهم وأتبع لهم من ظلهم. وقال أبو نواس:

وندمان يرى عيبًا ليه بأن يمشى وليس له انثناء
إذا نبهته من نوم سكر كفاه مرة منك النداء
وليس بقائل لك إيه عنى ولا مستخبر لك ما تشاء
ولكن اسقنى ويقول أيضًا عليك الصرف إن أعياك ماء
إذا ما أدركته الظهر صلى فلا عصر عليه ولا عشاء
يصلى هذه فى وقت هذا وكل صلاته أبدا قضاء

وقال العفيف التلمساني وتلطف إلى الغاية:

تعلم من مرافقة النديم ... مطاوعة الأراكة للنسيم
وعاشره بأخلاق فإني ... وحقك عبد رق للنديم
وعاطيه أحاديثي وكاسي ... فيسكر بالحديث وبالقديم

وقال الجاحظ:

أرى للكاس حقا لا أراه ... لغير الكاس إلا للنديم
هو القطب الذي دارت عليه ... رحى اللذات في الزمن القديم

وقال آخر:

ألم تعلما أن النديمين ما صفا ... ودادهما أو أنصفا أخوان
فإن رضاع الكاس أوجد حرمة ... وحقا علينا من رضاع لبان

ومن كلامهم لا معرفة أفضل من معرفة الكنية ولا حرمة أعظم من حرمة العشرة ولا نسب أقرب من رضاعة الكاس وقال المأمون:

أنا وأنت رضيعا قهوة لطفت ... عن العيان ورقت عن مدى القدم
ما بيننا رحم إلا إدارتها ... والكاس حرمتها أولى من الرحم

ومن الأدب لمن يناول القدح أن يشمه وينظر فيه ويحرك رأسه مع المحادثة عليه قليلاً والإصغاء إلى من يغنى قبل انقطاع صوته هذا كله وكأسه محمول بين أنامله، لا يضعه على الأرض فليس لوضعه فائدة غير انصبابه وإفساد ما تحته من الفرش ومن الأدب أن لا يكثر من تاول النقل واستعماله على الشراب فإنه ينفخ المعدة ويهيج الشراب ويدعو إلى القيء ويحط من قدر صاحبه.

وما ألطف بعض الظرفاء وقد رأى شابا يكثر من التنقل فى جلس الشراب فقال أراك رجلا تشرب النقل وتنتقل بالشراب، ومن آداب المنادمة إذا أخذ أحدهم حظه من الشراب وانتهى إلى الكفاية لا يزيده ولا يثقل عليه ولا يحلف على الشراب فإن القصد بسط الجليس وانشراحه، وقد حصل فلا يتوهم زيادة سروره بذلك فربما كان ضرره أكثر فكان كقول القائل:

رام نفعا فضر من غير قصد ومن البر ما يكون عقوقا

ولله در من قال:

الخمر عندى حرام فلست أشرب خمرا
كتبت عهدة خمر فرحت سكران شهرا

وقال سعيد بن عون وقيل ليزيد بن معاوية:

وإن نديمى غير شك مكرم على وعندى من هواها الذى أرضى
ولست لمن قد نام عندى بموقظ ولا مسمع يقظان شىء من الأذى
ولست له فى فضلة الكاس قائلا ليشربها شكرا بحسن وقد أبى
ولكن أفديه وأكرم وجهه وأشرب ما أبقى واسقيه ما اشتهى

ولله در البحترى حيث قال:

بت أسقيه صفر الراح حتى وضع الكاس مائلا يتكفى
قلت عبد العزيز تفديك روحى قال لبيك قلت لبيك ألفا

وما أحسن قول أبى نواس:

ولست بقائل لنديم صدق وقد أخذ الشراب بمقلتيه
تناولها وإلا لم أذقها فيأخذها وقد ثقلت عليه

ولكنى أديـر الكـاس عنـه إذا استعفى بغمزه حاجبيه

وإن طلب الوسـاد لنوم سكر مـددت وسـادتى منى إليـه

وتلطف ابن أيبك فى اعتذاره عن قلة الشراب فقال:

وحقك لو علمت بقدر شربى لما جـرعـتنى إلا بمسـعط

وحسبك أن خـمـارا بجنبى أمـر ببـابه فـأكـاد أسـقط

وبالغ بعضهم فقال:

أمـر بالكرم إن عـبـرت به تأخـذنى نشـوة من الطرب

أسكر بالكاس إن عزمت على الـ ـشـرب غـدا إن ذا من العـجب

وقال ابن صاحب تكريت:

وأشـرب من مـاء توهمت أنه سقى كرمها من قبل يمزجه الخمر

سطرت بكفى عهد الكرم مرة فاسكرنى حينا بها ذلك السطر

وقال الشيخ شرف الدين بن الفارض:

ولو نظر الندمـان ختم إنائها لأسكرهم من دونها ذلك الختم

وفوق لواء الجيش لو رقم اسمها لأسكر من تحت اللوا ذلك الرقم

فإذا استكمل النديم هذه الأوصاف فقد عقدت الناصر على محاضرته وأشير بالأصابع إلى منادمته واستحق قول القائل:

بروحى من نادمته فوجدته أرق من الشكوى وأصفى من الدمع

يوافقنى فى الجد والهزل دائما فينظر من عينى ويسمع من سمعى

وأجاد بعضهم فى وصفه بقوله:

ولى نديم كثير الود ذو أدب ... أرى شمايل فيه كلها أدب

كأنه كأس خمر من لطافته ... ودر ألفاظه من فوقها حبب

وسئل بعضهم عن نديمه فقال والله هو ريحانتى على قدحى وقال آخر فى نديم بديع الجمال:

فديت من نادمته فى مجلس ... قد عطلت فيه أباريقه

طلبت وردا فأبى خده ... ورمت راحا فأبى ريقه

وقال آخر فيه:

وشادن قلت له ... هل لك فى المنادمة

فقال كم من عاشق ... سفكت بالمنى دمه

وقال الشيخ العلامة بدر الدين محمد بن الدمامينى:

ورب نهار فيه نادمت أغيدا ... فما كان أحلاه حديثًا وأحسنا

منادمة فيها منای فحبذا ... نهارا تقصى بالحديث وبالمنا

وقال الشيخ تقى الدين بن حجة فى مليح محاضر:

يطارحنى بأبيات ولكن ... يناقضنى إذا طال اجتماعى

فإن أنشدت أشعار السلام ... يطارحنى بأبيات الوداعى

وللمقر المرحوم فخر الدين بن مكانس سقى الله ثراه أرجوزة لطيفة فى أدب النديم سماها عمدة الحرفا وقدوة الظرفا لا بأس أن يحسن إيرادها فى ختام هذا الباب.

هل من فتى ظريف ... معاشر حريف

يسمع من مقالي ... ما يبهر اللآلي

أمنحه وصية ... سارية سرية

تنير في الدياجي ... كلمعة السراج

ماجنة خليعة ... بليغة مطبوعة

رشيقة الألفاظ ... تسهل للحفاظ

جادت بها القريحة ... في معرض النصيحة

أنا الشفيق الناصح ... أنا المجد المازح

أسلك بالجماعة ... في طرق الخلاعة

أجدد لأكياس ... عهد أبي نواس

أن تبتغي الكرامة ... وتطلب السلامة

أسلك مع الناس الأدب ... ترى من الدهر العجب

ألن لهم خطابا ... واعتمد الآدابا

تنل بها الطلابا ... وتسحر الألبابا

وألبس حلا الخلاعة ... واخلع رد الرقاعة

ولا تطاول بنشب ... ولا تفاخر بنسب

المرء ابن اليوم ... والعقل زين القوم

ما أروض السياسة ... لجامع الرياسة

إن شئت تلقا محسنا ... فلا تقل قط أنا

العز فى الأمانة ... والكيس فى الفطانة

لا تغضب الجليسا ... لا توحش الأنيسا

لا تسخط الرئيسا ... لا تصحب الخسيسا

لا تكثر العتابا ... تنفر الأصحابا

فكثرة المعاتبة ... تدعو إلى المجانبة

وإ حللت مجلسا ... بين سراة رؤسا

أقصد رضا الجماعة ... وكن غلام الطاعة

ودارهم باللطف ... واحذر وبال الخسف

لا تلفين كاذبا ... لا تهمل الملاعبا

قرب الندامى يلجى ... للتردد والشطرنج

واختصر السؤالا ... وقلل المقالا

ولا تكن معربدا ... ولا بغيضا نكدا

ولا تكن مقداما ... تسطو على الندامى

لا تمسك الأقداحا ... تنغص الأفراحا

لا تقطع الطوافة ... لا تحبس السلافة

لا تحمل الطعاما ... والنقل والمداما

فذاك فى الوليمة ... شناعة عظيمة

لا يرتضيها آدمى ... غير وضيع عادم

وقل من الكلام ... ما لاق بالمدام

كرائق الأشعار ... وطيب الأخبار

واترك كلام السفلة ... والنكتة المبتذلة

تقابل الأكياس ... إذا أريق الكاس

بادره بالمنديل ... فى غاية التعجيل

فشملة الكرام ... سفنجة المدام

وإن رقدت عندهم ... فلا تشاكل عبدهم

فإن سلمت مرة ... فلا تعد يا عمرة

لا تأمنن الثانية ... فإن تلك القاضية

والدب فاحذره حذر ... فإنه إحدى الكبر

فيالها فضيحة ... وشنعة قبيحة

فاعلها لا يكرم ... وإن رؤى لا يرحم

كم سكن الترابا ... ذوى غيرة دبابا

وكم فتى من دبه ... أصبح مقضى التقبه

جازوه من جنس العمل ... وصار فى الناس مثل

ليس من آسى ... كمثل بعض الناس

إياك والتطفيلا ... وشؤمه الوبيلا

تبًّـــآ لهـــا من مـــحنة ومـــــــثلة وهـجنـه

وإن دعـــوك الأخـــوة إلى ارتشـــاف القـــهـــوة

فـــلا تصـــقع ذقنك ولا تـــزرهـــم بـابـنـك

ولا بجـــــــار الدار ولا يشـــخص طارى

ولا بخل تـألـفـــــه ولا صـــديق تعـــرفـــه

ولا تـقـــل لمـن يـحـب ضـــيف الكرام يصطحب

فـــهـــذه أمـــثـــال غـــالبـــهـــا مـحـــال

وإن حللت مـــشـــربه مع ســوقـة لأكـتـبـه

فـــــاقلل من المدام فى مـــجلس العـــوام

فـعـــصـبـة العـوام ضـــرب من الأنعـــام

ولا تكن ملحـــاحـــا واجـــتنب المزاحـــا

فكثـــرة المجـــون نـــوع مـــن الجـــنـــون

والأمـر فـيـه مـحـتـمل وكـل من شـــاء فـــعـل

وآخـــر الأمـــر رضـــا وكل مـــفـــعـــول مـضى

وإن صـــحـــبت تركى فـــاصـــبـــر لأكل الصك

هـذا إذا تـلـطـفـــــا ولم يكن فـيـه جـــفـا

وإن يكـن ذا عـــــربدة أو نـزغـــــة منكـده

يقـــــوم لـلجـلوس بـالســـيف والدبوس

أبشـــر بقـــتل القـــوم وشـــؤم ذاك اليـــوم

obeikandl.com

أن رام منك المسخرة ... فانهض إلى المبادرة

واعمل له معرصا ... وإلا قتلت يا خصا

وسسه واتمسخر وقد ... وإن خلصت لا تعد

فلا تخالف تندم ... ولا تغرر تعدم

فالشؤم فى اللجاج ... والحر لا يداجى

وهذه الوصية ... للأنفس الزكية

أختارها لنفسى ... وإخوتى وجنسى

من يعد عن طريقى ... يغب عن التوفيق

أما عرفت رسمى ... أما سمعت باسمى

سل الدنامنا عنى ... وإن تشا فسلنى

أنا الفتى المجرب ... أنا الحريف الطيب

أنا أبو المدام ... أنا أخو الكرام

كأننى إبليس ... للهو مغناطيس

أمشى على أعطافى ... فى طاعة الخلاف

فبادر التغزلا ... واستجل كاسك الملا

فإنما الدنيا فرص ... إن تركت عادت غصص

فهاكها وصية ... تصحبها التحية

تحملها الكرام ... إليك والسلام

الباب السادس
فيمن يختار من الندماء وذكر طرف من لطائفهم

ينبغى أن يختار من الندماء البلغاء والفصحاء وأرباب المروءات وذوى العقول والهيئات، فذلك مما يورث حسن الشيم ويبعث على سلوك الأدب وفى هذا المعنى يقول الشيخ صفى الدين الحلى:

صاحب إذا ما صحبت ذا أدب ... مهذب زان خلقه الخلق

ولا تصاحب من فى طبائعه ... شر فإن الطباع تسترق

وقال غيره:

كل امرء فى حالة حرب ... لا يا من العدوى به الأقرب

طبع الفتى يسرق من طبع من ... يصحبه فانظر لمن تصحب

وما أحسن قول بعضهم:

من عاشر الأشراف عاش مشرفا ... ومعاشر الأنذال غير مشرف

أما ترى الجلد الحقير مقبلا ... بالشغر لما صار جلد المصحف

ولقد تذكرت هنا حكاية لطيفة ينبغى أن لا يخلو هذا الكتاب عنها، وهى أن الحجاج أمر صاحب حرسه أن يطوف بالليل فمن رآه بعد العشاء ضرب عنقه فطاف ليلة فوجد رجلين يتمايلان وعليهما أثر الشراب وأحاط بهما الغلمان فقال لهما صاحب الحرس من أنتما حتى خالفتما قول الأمير وخرجتما فى مثل هذا الوقت فقال أحدهما:

أنا ابن من دانت الرقاب له ... ما بين مخزومها وهاشمها

تأيه بالرغم وهى صاغرة ... يأخذ من مالها ومن دمها

فأمسك عنه وقال لعله من أقارب أمير المؤمنين، ثم قال لآخر من أنت فقال:

أنا ابن الذى لا تنزل الأرض قدره ... وإن نزلت يوما فسوف تعود

ترى الناس أفواجًا إلى ضوء ناره ... فمنهم قيام حولها وقعود

فأمسك عن قتل الآخر وقال لعله من أشراف العرب واحتفظ بهما فلما أصبح رفع أمرهما إلى الحجاج فأحضرهما وكشف عن حالهما فإذا الأول ابن حجام والآخر ابن فوال فتعجب الحجاج من فصاحتهما وقال لجلسائه علموا أولادكم الأدب فوالله لولا فصاحتهما لضربت عنقهما ورأيت فى بعض المجاميع هذه الحكاية منسوبة إلى بعض الحكام لا على التعيين وأن الحاكم لما أعجبه كلامهما أنشد:

كن ابن من شئت واكتسب أدبا ... يغنيك مضمونه عن النسب

إن الفتى من يقول ها أنا ذا ... ليس الفتى من يقول كان أبى

فانظر أيها الأديب إلى هذه البلاغة فى مثل هذه الحالة سبحان المانح ما هى الامنح الالهية ومواهب اختصاصية، وقد آن لى أن أطلق عنان القلم فى حلبة هذا السباق وأورد من نوادر اللطفاء ما يشنف الأسماع ويلطف الأذواق.

يحكى أنه قدم لبعض الحكام رجل ومعه زجاجة فارغة فأمر بحده فقال ولم ذلك. قال لأن معك آلة الخمر فكشف الرجل عن متاعه فقال وهذه آلة الزنا فضحك منه وأطلقه، ورفع إلى هشام بن عبد الملك شيخ سكران ومعه زجاجة شراب وعود، فقال هشام اكسروا الطنبور على رأسه وصبوا النبيذ على ثيابه واضربوه الحد، فبكى الشيخ فقيل له أتبكى قبل أن تضرب فقال ليس بكاءى للضرب ولكن لحقاركم العود حتى سميتموه طنبورا وخمرة كالمسك سميتموها نبيذا فاستظرفه الوالى وعفى عنه.

ورى بعض الولاة رجلا ومعه زجاجة شراب حاملها فى عبه فاستدعاه فجاء بين يديه وقال له أخرج يدك فأخرج يده اليمنى ومسك الزجاجة باليسرى فقال أخرج يدك اليسرى فأدخل اليمنى ومسكها بها وأخرج اليسرى، فقال أخرجهما معا فمشى إلى الحائط وألصق الزجاجة بالجدار وأسندها بجنبة وأخرج يديه معا فقال له الوالى أخرج عن الحائط فقال تنكسر يا مخلوع فضحك وقال خذها وانصرف.

وحكى أنه أتى عبد الملك بن مروان بسكران فقال له ماذا شربت فقال:

معتقة كانت قريش تعافها فلما استحلوا قتل عثمان حلت

فقال مع من شربت فقال:

شربت مع الشعر بكاس روتينى وأخرى مع الجوزاء لما ساتقلت

قال فبم غنيت فقال:

سقونى وقالوا لا تغنى ولو سقوا جبال حنين ما سقونى لغنت

فضحك منه وأطلقه ومنع مروان بن الحكم الخمر فى أيام خلافته وأمر أصحاب الشرطة أن يدوروا فمن وجدوه سكرا أحضروه بين يديه، فبينما هم ذات ليلة إذ وجدوا شابا لم ير أحسن منه سكران وهو يقول:

البدر يكمل كل شهر مرة وجمال وجهك كل يوم كامل

وحلوله فى برج قلب واحد ولك القلوب جميعهن منازل

فلما فرغ من شعره قالوا له أوليس قد بلغك نداء أمير المؤمنين بترك السكر قال إنى رجل غريب قدمت وما علمت بما ذكرتموه فحذروه وتركوه ومضوا فلما كانت الليلة الثانية وإذا بالشاب سكران أكثر من الليلة الأولى وهو يقول:

يقولون تب والكاس فى يد أغيد وصوت المثانى والمثالث عالى

فقلت لهم لو كنت أضمرت توبة وعاينت هذا فى المنام بدالى

فأحاطوا به أيضًا وقالوا له أوليس تقدم معك بالأمس ما يغنى عن الإعادة، قال إنى تبت وأنا سكران، فملت إلى النسيان فإن عاقبتم فهو العدل وإن عفوتم فلكم الفضل فحذروه أن لا يعود ومضوا فلما كان فى الليلة الثالثة فإذا به سكران أكثر مما قبلها وهو يقول:

صلوا غريبًا نحيبًا ذاب من أسف أضحت حشاه بنار الهجر تلتهب

يموت وجدا ولكن دون وصلكم تعطفوا فلكم يبكى وينتحب

فمسكوه وأحضروه لمروان بن الحكم فضربه الحد فلما فرغ من جلده ثمانين قال أصلح الله أمير المؤمنين إنى عبد وقد جلديتنى جلد الأحرار فأعطنى حق جنايتك على، فقال أعطوه حق جنايتنا عليه، فقال أصلح الله أمير المؤمنين إن رأى أن يعطنى حق جنايته على شرب الخمر متى أريده فليفعل فاستظرفه وجعله من جلسائه.

وحكى أنه أتى برجل مدنى سكران إلى بعض الولاة فأمر بإقامة الحد عليه وكان الرجل طويلا والجلاد قصيرا فلم يتمكن من ضربه، فقال الجلاد للمدنى تقاصر لينالك الضرب فقال له ويلك إلى أكل الفالوذج تدعونى والله وددت لو أنى أطول من عوج بن عنق وأنت أقصر من يأجوج ومأجوج.

وقيل إن بعض الظرفاء كان يكثر من شرب المزور والنبيذ فاحضر إلى الوالى فأمر أن يكتب عليه حجة أن لا يعود يشرب سكرا فمضوا به إلى القاضى فقال له يا ولدى نشهد عليك أن لا تشرب سكرا، ولا تغرب راووق غدير، ولا حارة السودان، ولا حارة الشاشة، ولا كرم ديناز، ولا بركة

اليقطين، ولا حدرة عكا، ولا الجزيرة، ولا المريس، ولا الباطلية، ولا شيرا، ولا منية السيرج، ولا حادة زويلة، ولا الجوانية، ولا حارة الروم، ولا الجودرية، ولا سويقة صفية، ولا قنطرة الفجر. فقال ذلك الرجل للشهود اكتبوا الحجة على مولانا القاضى فإنه أخبر منى بهذه المواضع فاستظرفوه وخلوا سبيله.

ويحكى أن بعض الظرفاء كان يستعمل الشراب سرا وكان عليه الحجر من والده فبلغ ذلك لوالده فما زال يتتبع أخباره إلى أن لقيه ومعه زجاجة خمر، فقال ما هذا قال لبن قال ويحك اللبن أبيض وهذا أحمر قال صدقت ولكن كان أبيض فلما رآك خجل واستحى فاحمر ولعن الله من لا يستحى فخجل والده وتركه. قلت: ومن هنا أخذ يزيد بن معاوية فقال:

دعوت بماء فى إناء فجاءنى غلام به خمرا فأوثقته زجرا

فقال هو الماء القراح وإنما تجلى له خدى فأوهمك الخمرا

وما ألطف قول بعضهم:

دعوت بماء فى إناء فعفته وقلت طلبت الماء أحضرت لى الراحا

فاعرض عنى باسما وهو قائل هو الماء لكن لون خدى له لاحا

لطيفة: نديمان أحدهما لطيف والآخر كثيف ولكل منهما حدبة فى صدره، والآخرى من وراء ظهره فانفرد اللطيف يوما عن صاحبه واشترى له مداما وفاكهة دخل حماما واعتزل عن الناس فى الخلوة، فبينما هو يتناول ما معه من الشراب ويغنى وإذا بالحائط قد انشق وخرج منه عفريت فى صورة فيل، وقال يا أنسى فلما رآه الأحدب لم يخف ولم يفزع وكلمه كلاما لطيفًا وبسط له الأنس وعزم عليه فقال الجنى والله أنت أحدب لطيف يا إنسى ما

حاجتك. قال والله إن هاتين الحدبتين قد بليانى البلاء وأحرمانى من الاجتماع بالناس، فإن كنت تعرف شيئًا يزيلهما عنى يكون لك الثناء الحسن فمسكهما الجنى بيده فاقتلعهما وجعلهما على رأس الحائط التى فى الخلوة ومهد له صدره وظهره بيديه فاستوى قائما على قدميه وخرج فرحًا مسرورًا فرآه رفيقه الأحدب فقال يا صاحبى ما شأنك ومن الذى جعلك مقوما بعدما كنت أحدب فذكر له القصة فمضى الأحدب الكثيف إلى السوق وكان معه منديل فباعه بثلاثة دراهم واشترى بها مداما ونقلا ودخل إلى الخلوة، فلم يستقر لحظة إلا والجنى قد سمع صوته فقال والله إن صاحبنا اللطيف جاء إلينا فشق الحائط وخرج إليه فلما رآه الأحدب على هيئة الفيل هاله ففزع فقال العفريت والله أنا خارج واحتال عليه ولاطفه حتى سكت فمد زلومته وأخذ الحدبتين اللتين كانتا على رأس الحائط فلسقهما للأحدب واحدة فى الجانب الأيمن والأخرى فى الجانب الأيسر، فخرج وله أربع حدبات وهو أعجوبة من العجائب، فرآه بعض الناس فقال له ما هذا، فقال خلقة الله تعالى وهاتان اللتان فى الجنبين اشتريتهما من الحمام الفلانى بثلاثة دراهم.

ويحكى عن بعض من أدركناه من اللطفاء أنه اجتمع ذات ليلة مع جماعة من أعيان الناس بالديار المصرية لا ينبغى التصريح بذكرهم فى مجلس أنس إلى أن أخذهم السكر ومالت رؤوسهم إلى الإعفاء وبقيت من الشراب بقية فوضعوها فى زجاجة وجعلوها فى خزانة وقالوا هذا نجعلها للاصطباح، وناموا والشيخ المذكور لم يأخذه نوم فقال فى نفسه وما تغنى هذه الزجاجة وهى لا تكفى الجماعة والأولى أن أحيى بها هذه الليلة فقام إليها وشرب جميع ما فيها إلى أن أصبح فقال الرأى أنى انصرف إلى الحمام قبل أن ينتبهوا فذهب إلى الحمام وقضى أربه منه، ثم خرج إلى الجامع فصلى الصبح وجلس فجاء رجل وجلس بين يديه وجاء آخر فجلس بجانب صاحبه وهكذا

إلى أن بقى حوله جماعة فسأله بعضهم سؤالا فأجابه ثم سأله آخر فأجاب وانطلق لسانه وكان إذا تكلم لم يسكت لكثرة علومه وشدة بلاغته فازدحم الناس عليه، ولم يزل يستطرد من شيء إلى شيء إلى أن عمل لهم مجلسا فى غاية ما يكون من الحسن والبلاغة، وأما الجماعة فإنهم انتبهوا وقاموا للاصطباح فلم يجدوا فى الزجاجة شيئًا فعلموا أن ذلك من صاحبهم وفتشوا عليه فلم يجدوه فمضوا إلى الحمام وسألوا عنه فقيل لهم إنه كان هنا وخرج فاستعملوا ماء ومضوا إلى الجامع، وإذا بحلقة عظيمة وخلق مزدحمون فجاءوا من وراء الناس ونظروا فإذا هم به وهو فى غاية ما يكون من المواعظ وإلقاء الدقائق فوقفوا منتظرين إليه فرآهم وعلم أنهم اتهموه بما كان فى الزجاجة فزاد فى المواعظ والأمثال وشرع بحسن التلخيص إلى جملة من كرامات الأولياء وكلام القوم إلى أن قال وما أحسن ما قاله سيدى عبد القادر الكيلانى قدس الله روحه حيث قال:

كان للقوم فى الزجاجة باق أنا وحدى شربت ذاك الباقى

ففهم الجماعة مقصوده من غير أن يفهم أحد وقالوا والله لقد علمنا أنه ما شربها غيره وله نوادر وحكايات وظرف لا بأس بذكر بعضها، منها: أنه كان فى بعض الأيام ومعه جماعة من الرؤساء فمروا من بعض الخلجان فى شختور والشيخ المذكور يترنم بأبيات لطيفة، وإذا بشيخ نظر إليه من طاقة وقال إيش يقول هذا الشيخ النحس فأجابه برياسة ولطافة وقال تشتم الناس من الطاقة.

وألطف من ذلك ما حكى أنه كان بمكان وإذا بجماعة من عشائره راكبين فى شختور فمروا من تحت لبيت فرأوه فى الطاقة فقالوا له يا سيدنا الشيخ قد ولیناك قاضى المعرصين فقال قبلت ذلك، من له منكم دعوى على رفيقه فليتقدم يدع عليه وله حكايات ظريفة ونوادر لطيفة ليس هذا موضع ذكرها.

ومن الحكايات اللطيفة ما حدث به إسحق بن إبراهيم الموصلى، قال كنت عن المأمون يومًا فشربنا وطربنا فلما أمسينا قال المأمون يا إسحق إن هذا اليوم قد طاب لى وقد عزمت غدا على الاصطباح وإنى أريد الدخول على الحريم فلا تبرح من مكانك حتى أوافيك ودخل وبقيت وحدى فاستوحشت وتذكرت صبية كانت لى وكنت عزمت على الدخول بها تلك الليلة فزاد غرامى واشتقت إليها وخرجت ولم أصبر عنها فلقينى الحجاب والخدم فقلت إن أمير المؤمنين قد دخل إلى الحجرة فما وسعنى الجلوس بعده وسآتية سحرا وذهبت فلما كان فى بعض الطريق أخذنى البول فعمدت إلى درب بإزاء الطريق فجلست وبلت، ثم كانت منى التفاتة وإذا أنا بزنبيل معلق بشرائط حرير فجئت إليه وقلبته فإذا هو مفروش بالديباج الخسروانى فحرت ولم أدر ما معناه ثم حملنى السكر إلى أن دخلت فيه.

فلما أحس بثقلى رفعت ولم أشعر إلا وأنا فى الهواء حتى صعد بى إلى أعلى شرافات قصر وإذا بوصائف وخدم وشموع فلما رأونى رحبوا بى وقالوا أهلا بالضيف فخرجت من الزنبيل وتقدموا بين يدى فنزلت إلى قصر من قصور الملك وفيه من الآلات ما لا يوجد إلا فى دور الخلفاء وأدخلت إلى مجلس فى غاية الحسن فيه من فاخر الفراش ما ليس فى دار الخلافة وفى صدره مرتبتان من مراتب الخلفاء فأجلست على واحدة على أيدى الخدم، وبينهن جارية كأنها الشمس عليها من الحلى ما لا يكون لا على نساء الخلفاء وحولها وصايف حسان يرفعن أذيالها ولها وجه ما ظننت أنه من الآدميين فلما رأيت ذلك دهشت وقمت إجلالا لما رأيت فأقسمت على أن أجلس فجلست وجلست هى فى المرتبة الثانية وسبقتنى بالسؤال وقد رأتنى أصابنى الروع لدخولها ثم أشارت إلى الخدم فقدمن مائده من موائد المملوك، وأحضرن من الطعام ما لم ير مثله إلا عند أمير المؤمنين فأكلنا وغسلنا أيدينا ثم تطيبنا بأنواع

الطيب، ثم قدمن سفرة فيها أنواع الرياحين والفواكه الرطبة واليابسة فى أوانى الفضة والذهب وفيها من الشراب أطيبه وأرقه وأحسنه فى أوانى البلور، ثم أمرت بإحضار المغانى وآلات الملاهى، فاندفعن يضربن ويغنين فأخذنى الطرب وطار عقلى ثم خرجنا إلى الحديث وتفاوضنا أخبار الناس وتناشدنا الأشعار، فقالت: يا سيدى إنك لظريف وما رأيت أكثر ظرفًا منك، فقلت لها إنما اكتسبت ذلك من ابن عم لى هو أظرف منى وأعرف بالأخبار،

ومرت لى ليلة ما رأيت عمرى كلها أطيب منها، فلما كان من السحر صعدنى إلى السطح واهبط بى إلى الأرض ونهضت إلى دارى فلبثت قليلا ثم أتيت إلى المأمون فوجدته متغيرا على فقال لى يا إسحق أمرتك أن لا تخرج من هنا فما الذى أوجب مسيرك فقلت: يا أمير المؤمنين لما تركتنى وبقيت وحدى تذكرت صبية عندى كنت عزمت على الدخول عليها فى هذه الليلة، فلم أتمالك أن نهضت إليها وحملنى السكر والشوق إلى أن كان منى ما كان، ثم إنه قبل عذرى وصفح عنى وجلسنا يوما نشرب إلى الليل، ثم دخل المأمون إلى الحريم وقال لا تبرح حتى نصطبح، فلما دخل لم يهن لى عيش ولا أخذنى قرار شوقا إلى ما كنت فيه بالأمس، فقلت لابد من الخروج فخرجت فمنعنى الخدم وقالوا قد أغلظ علينا أمير المؤمنين بسببك فأحسنت لهم بالقول ولم أزل بهم حتى خرجت وقصدت الموضع، وإذا أنا بالزنبيل معلق على هيئته فدخلت فيه فلما أحسوا بى رفعونى، فلما رأونى قالوا ضيفنا البارحة قلت: نعم قالوا تمهل حتى نستأذن مولاتنا، فإن من عادتها أن لا يدخل عليها أحد تقدم له دخول فمضوا واستأذنوها فجاء الإذن بالدخول فجئت إلى المجلس بعينه والمرتبتان بعينهما ثم جاءت فجلست وسألتنى عن حالى كيف كان بعدها وأظهرت من الأنس والفرح لحضورى ما أخجلنى ثم أتى بالطعام والشراب على الحال المتقدم وأخذنا فيهما إلى حد الانبساط

ودخلنا فى الحديث والمذاكرة أكثر ما كان بالأمس فلما أعجبها حديثى وملاطفتى قالت لى والله إنك لظريف حسن الحديث طيب المنادمة.

قال وكنت إذ ذاك أذكر فى أمر المأمون وظهر لى أن أحدثه بذلك لكن علمت أنه يكلفنى بالمشاهدة فقلت لها يا سيدتى كيف لو رأيت ابن عمى قالت والله ما بعدك غاية فقلت والله ما أنا إلا قطرة من بحره، ولو سمحت مولاتى أن آتى به لتيقنت صدق قولى فقالت والله ما جرت لى هذه العادة أبدًا ولا دخل هذه الدار أحد وعاد إليها غيرك، وذلك لما رأيت من حسن أدبك ولطف شمايلك فقلت يا سيدتى لو رأيت ابن عمى لنقص عندك قدرى ولقل عندك كثيرى. قالت فإذا ائتنا به فى الليلة القابلة فقلت إن شاء الله تعالى.

وأخذنا فيما نحن فيه إلى وقت السحر، وخرجت من حيث دخلت ومضيت إلى منزلى فجلست فيه هنيهة ثم مضيت إلى المأمون فوجدته حرجا على فسلمت عليه فقال لا سلمك الله يا مستخف بأمرى وكلامى ووجدته قد عاقب الحاجب والبوابين. فقلت يا أمير المؤمنين لا تعجل على فإن لى حكاية ظريفة. قال قل فأعلمته الخبر ثم قلت وقد أخذت لك إذنًا منها فسر بذلك غاية السرور ولم يكن له حديث فى ذلك النهار كله إلا إعادة الحديث والسؤال عن أخبارها، حتى أقبل الليل فقال هذا وقتنا فقمنا جميعًا بعد أن أشرطت عليه أن يضع نخوة الخلافة وأن يطرح عنى كل شىء ويجرى معى مجرى الأكفاء وأبناء الأعمام. فقال نعم، ثم وافينا الموضع وإذا بزنبيلين معلقين فدخلت أنا فى واحد وهو فى الآخرة فرفعنا وصرنا على السطح وأهبطنا إلى الدار ومضينا إلى المجلس بعينه وإذا فيه ثلاث مراتب فجلست أنا فى مرتبة وهو فى أخرى وبقيت الوسطى خالية، ثم أقبلت الجوارى وهى تتبختر بينهن على الهيئة المعتادة وقدم الطعام والشراب على العادة والمأمون ينظر إلى ويتعجب من حسن ما يرى، ثم انبسطنا ودخلنا فى الحديث وتناشد

الأشعار وقد بهرها المأمون ببارع أدبه ومحاسن شيمه فقالت له يا سيدى إن ابن عمك هو فوق ما وصفت وأكثر مما ذكرت، ولقد قصرت فى وصفه ومرت لنا أحسن ليلة.

ثم إن المأمون لحسن ما رآه استرسل فى الشراب وزاد طربه فاندفعت حارية من بعض الجوارى تغنى بشعر هو من صنعتى فلم تورده على وجهه والمأمون يعرفه متقنًا ويعرف ما نقصته من صناعته فعند ذلك أخذته نخوة الرياسة وغلبت عليه شهامة الخلافة فقال يا إسحق غن هذا الشعر فقمت قائما عند نداءه إياى وقلت سمعًا وطاعة يا أمير المؤمنين، ثم أمرنى بالجلوس فجلست وأخذت العود وغنيت الشعر فقامت الجارية مسرعة دخلت بعض المخادع وحصل للخدم روع، ثم سألها عن حالها وبنت من هى ولمن هذه الدار، فقال له بعض الخدم هذا دار الحسن بن سهيل وهذه بوران بنته فنزلنا من الباب وانصرفنا إلى دار الخلافة، فلما أصبح خطبها المأمون من أبيها وتزوجها منه على حسب ما ذكره أهل التواريخ. انتهى.

ولم يزل المؤرخون وأهل الأدب يروون هذه الحكاية إلا صاحب جراب الدولة فإنه قال ومن الأحاديث الموضوعة والحكايات المصنوعة ما حدث به إسحق وساق هذه الحكاية على هذا النمط والله أعلم بصحة ذلك وإذ قد انتهى بنا الكلام إلى خطبة بوران فلنذكر نبذة متعلقة بزواجها فإن ذلك مما لا يستغنى عنه النديم.

حكى صاحب الاكتفاء فى تواريخ الخلفاء فى ترجمة المأمون قال ففى رمضان سنة عشر ومائتين بنى المأمون ببوران وكان المأمون قد سار من بغداد إلى فم الصلح إلى معسكر الحسن بن سهل فأنزله وزفت إليه بوران فلما دخل إليها المأمون كان عندها حمدونة بنت الرشيد وأم جعفر وزبيدة أم الأمين وجدتها أم أبيها الحسن وأخوها الفضل بن سهل فلما دخل نثرت عليه جدتها

ألف لؤلؤة من أنفس ما يكون وقيل أنه لما دخل بها جلس يحادثها وقد فرش لها حصير منسوج بالذهب إذ نثرت عليها جدتها ألفا وثلثمائة درة كبارا وصغارا فى أطباق من ذهب فنظر المأمون إلى الدر وهو على الحصير فقال قاتل الله أبا نواس كأنه كان حاضرا هذا المجلس حيث يقول:

كان صغرى وكبرى من فواقعها حصباء در على أرض من الذهب

وأمر المأمون بجمع ذلك فجمع ودفعه لبوران وقال سلى حوائجك فأمسكت فقالت لها جدتها سلى سيدك حوائجك فقد زمرك فسألته الرضا عن إبراهيم بن المهدى، فقال قد فعلت وسألته الإذن لأم جعفر زبيدة فى الحج فأذن لها فألبستها أم جعفر البدلة الأموية اللؤلؤية وكان عليها من الجواهر واللآلى ما لم ير مثله فى الدنيا وأقام المأمون عند الحسن سبعة عشر يومًا وقيل عشرين يومًا يعدله كل يوم ولجميع من معه ما يحتاج إليه وخلع ابن سهل على جميع القواد على قدر مراتبهم وحملهم ووصلهم فكان مبلغ ما أنفقه والدها فى هذا المهم خمسين ألف ألف درهم وقيل إن الحسن بن سهل كتب أسماء ضياع وأملاك له فى رقاع ونثرها على القواد وقت عقد النكاح، فمن وقعت فى يده رقعة فيها اسم ضيعة سلمها إليه وقيل إن جميع ما أوقد من الحطب فى أيام هذا المهم إنما كان من العود القاقلى.

ومن ألطف ما يحكى أن المأمون لما خلا بها أخذها ما يأخذ النساء من الحيض فأنشدته:

فارس ماض بحربته طاعن بالرمح فى الظلم

رام أن يدمى فريسته فاستجارت من دم بدم

ففهم مرادها وعاد من وقته إلى مبيته وعاشت بوران بعد المأمون مدة ولعلها لم تتزوج بعده والله أعلم.

الباب السابع

فى الإحسان إلى الندماء وتتابع صلاتهم وحسن جوائزهم وهباتهم

اعلم أن الإحسان إلى الندماء مما يحث على بلوغ الأرب وتعاطى كؤوس الأدب واتبعات الخواطر على اجتماع الأحباب وظهور الأنس بمجالس الشراب وللمتقدمين من الخلفاء والوزراء فى ذلك ما يستبعد وقوعه من أولئك وكانوا يعدون من القبيح انصراف النديم من غير إنعام فربما صغر فى عين أهله ومن حوله من حاشيته والخدام.

كما حكى عن جمال الدين بن شيت كاتب سر الملك المعظم عيسى أنه كان بينه وبين السلطان منادمة ومداعبة فاتفق أنه حضر عنده فى بعض الليالى فلما فارقه ورجع إلى منزله قالت له زوجته أين إنعام السلطان قال ما أنعم على الليلة بشيء قالت أنا أعوض عنه وقامت إليه هى وجواريها فى الحال وناولته بالأخفاف الثقال إلى أن لانت أعطافه ودارت فى حانة الصفع سلافه فكتب إلى الملك المعظم رقعة يذكر فيها شأنها وإحسانها إليه منها:

وتخالفت بيض الأكف كأنها الـ ـتصفيق عند مجالس الأعراس

وتتابعت سود الخفاف كأنها وقع المطارق فى يدى نحاس

فطرب السلطان من هذه الأبيات وبديعها وأمر بتلحينها وترجيعها ثم رمى بها إلى فخر القضاة بن بصاقة وقال أجب عنها فكتب الجواب نثراً وفى آخره:

فاصبر على أخلاقهن ولا تكن متخلقا إلا بخلق الناس

واعلم إذا اختلفت عليك فإنه ما فى وقوفك ساعة مر باس

ونادم أبو نواس أمير المؤمنين ليلة فـأنعم عليه بجارية وأمر بحملهـا معه وقال لها سرا إذا طلب منه كذا وكذا، فانزلى فى قفاه وكلما فعل فافعلى فلما وصل إلى منزله وأراد أن يقربهـا نزلت فى ساحله فأمسك عنهـا ثم أراد منها فنزلت وهلم جرا فمـا أصبح الصباح إلا وقفـاه فى غاية ما يكون من الألم، فجاء إلى الخليفة وهو لا يقدر أن يلتفت يمينا ولا شـمالا فقال كيف كان حال ليلتك يا أبا نواس قال كانت ليلة طيبة إلا أن مـولانا أمير المؤمنين عودها عادة قبيحة فـضحك منه وصله بمال وله فى منادماته أمور عجيبـة وأحوال غريبة لا بأس بذكر طرف منها مع الإيجاز والاختصار.

منها أنه حضـر عند أمير المؤمنين ليلة أنس وكـان أبو طوق حاضرا وأبو نواس مشـغوف بحسنه وجمـاله فلما فرغ المجلس وأخـذ كل واحد مضجـعا للنوم خاف أمير المؤمنين على أبى طوق من أبى نواس وقال له نم فوق السرير وقال لأبى نواس أنا وأنت ننام أسفل السرير قال سمعا وطاعة وهو بذلك غير راض وتغافل الخليفة عن أبى نواس وأظهر النوم ثم انتبه قائما فوجد أبا نواس فوق السـرير بجنب أبى طوق وهو يضمـه ويعانقه فـقال مـا هذه الحالة يا أبا نواس فأنشد:

قـــــد هـزنـى الـشـــــوق مـــن أجـــل أبـــى طـــوق
تـدحـــــــرجت ولـم أدر مـن تحـت إلـى فـــــــوق

فقال له قـاتلك الله الناس يتدحرجون من فـوق إلى أسفل أم من أسفل إلى فوق. ومنها أنه بات عنده أيضًـا ذات ليلة ومحبوبة أميـر المؤمنين حاضرة عنده فلما أرادوا النوم استأذن أبو نـواس فى الانصراف فلم يؤذن له ونام أمير المؤمنين ومحظيته فوق السرير وقال لأبى نواس ادخل تحت رجلى السرير فقال

لا أتسطيع قال لابد من ذلك، ففعل وانحصر حصرا عظيمًا وقال فى نفسه كيف يأخذنى نوم على هذه الحالة، وربما كان بين أمير المؤمنين ومحبوبته ما كان ويدرى أنى غير نائم، فلا يحصل لى بسبب ذلك خير، وكان الأمر كذلك فإنها راودت أمير المؤمنين صبيحة الغد الحمام ينقص مقامى بين بقية الجوارى والمحاظى، فقال إن كان ولابد من ذلك فكونى أنت من فوقى فإنى قد غلب على السكر ولا أستطيع الحركة ففعلت هذا وأبو نواس لم تغف عينه ولم يهجع وهو يظهر النوم خوفًا من أمير المؤمنين فلما كان من أمرهما ما كان ونزلت من فوقه أراد الخليفة أن يعلم عل أبو نواس نائم أم مستيقظ، فقال يا أبا نواس، قال لبيك يا أمير المؤمنين قال ما الوقت وهل الأذان قريب أم بعيد، قال سل يا أمير المؤمنين الذى كان فوق المنارة ونزل فضحك أمير المؤمنين وقال أنا والله قد علمت إنك لم يكن لنا بك حاجة ونرجع إلى ما كنا فيه.

حكى عن بعض اللطفاء أنه امتدح بعض الرؤساء فرسم له ببرذعة وحزام فأخذهما على كتفه وخرج فرآه بعض أصحابه فقال له ما هذا فقال امتدحت مولانا الأمير بأحسن أشعارى فخلع على من أفخر ملابسه.

ويحكى أن بعض الأعراب امتدح بعض الرؤساء بقصيدة بديعة فلما قرأها عليه استنكرها عليه بعض الحاضرين ونسبه إلى سرقتها فأراد الممدوح أن يعرف حقيقة الحال فرسم له بمد من الشعير وقال فى نفسه إن كان النظم له فلابد أن يقول فى شرح حاله شيئًا فأخذ المد الشعير فى ردائه وخرج فقال الممدوح للبوابين سرا لا تمكنوه من الخروج فوقف الأعرابى فى الدهليز حائرا فبعث إليه الممدوح بعض حاشيته فقال له ما شأنك يا أعرابى فقال إنى امتدحت الخليفة بقصيدة قال فما أجارك قال هذا المد من الشعير فقال هل قلت فى ذلك شيئًا قال نعم قال ما هو قال قلت:

يقولون لى أرخصت شعرك فى الورى فقلت لهم من عدم أهل المكارم

أجزت على شعرى الشعير وأنه كثير إذا خلصته من بهائم

فلما بلغ الممدوح هذان البيتان أعجب بهما وعلم أن القصيدة من نظمه فرسم له بجائزة سنية، وظريف ما اتفق لأبى الرعمق قال كان لى إخوان أربعة وكنت أنادمهم فى أيام الأستاذ كافور فأتى إلى رسولهم فى يوم بارد وليست لى كسوة تحصننى من البرد فقال الرسول إخوانك يقرأون عليم السلام ويقولون لك اصطبحنا اليوم وذبحنا شاة سمينة فاشته ما نطبخه لك وائتنا عاجلا فكتب إليهم يقول:

إخواننا قصدوا الصبوح بسحرة فأتى رسولهم إلى خصوصا

قالوا اقترح شيئًا نجد لك طبخه قلت اطبخوا لى جبة وقميصا

فذهب الرسول إليهم بالرقعة فما شعرت حتى عاد ومعه أربع خلع وأربع صرر فى كل صرة عشرة دنانير فلبست إحداها وصرت ريهم. وقال محمد بن يزيد المبرد خرج أبو تمام إلى خالد بن يزيد إلى أرمينية فامتدحه فأمر له بعشرة آلاف درهم فقبضها وسأله الإذن فى رحيله فأعطاه نفقة لسفره وودعه ومضت أيام فركب خالد متصيدا فرأى أبا تمام تحت شجرة وبين يديه ركوة فيها نبيذ وغلام حسن الوجه بيده طنبور وهو يغنيه. قال حبيب قال نعم خادمك وعبدك قال ما فعل المال فأنشد:

علمنى جودك السماح فما أبقيت شيئًا لدى من صلتك

ودخل ابن الخياط الملكى على المهدى وامتدحه فأمر له بخمسين ألف درهم فسأله أن يأذن له فى تقبيل يده فأذن له فقبلها وخرج فما انتهى إلى الباب حتى فرق المال بأسره فعوتب على ذلك فاعتذر وأنشد يقول:

لمست بكفى كفه أبتغى الغنا ولم أدر أن الجود من كفه بعدى

فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى أفدت وأعدانى فأتلفت ما عندى

فغنى بهما المهدى فأمر له بخمسين ألف دينار.

واستدعى بعض الخلفاء شعراء مصر فصادفهم شاعر فقير كان بيده جرة فارغة ذاهبًا بها إلى البحر ليملأها ماء فتبعهم إلى أن دخلوا دار الخلافة فبالغ الخليفة فى إكرامهم والإنعام عليهم ورأى ذلك الرجل والجرة على كتفه ونظر إلى ثيابه الرثة وقال من أنت وما حاجتك فأنشد:

ولما رأيت القوم شدوا رحالهم إلى بحرك الطامى أتيت بجرتى

فقال املأوا له جرته ذهبا وفضة فحسده بعض الحاضرين وقال هذا فقير مجنون لا يعرف قيمة هذا المال وربما أتلفه وضيعه فقال الخليفة هو ماله يفعل به ما يشاء فملئت له وخرج إلى الباب ففرق الجميع وبلغ الخليفة ذلك فاستدعاه فعاتبه على ذلك فقال:

تجود علينا الخيرون بمالهم ونحن بمال الخيرين نجود

فأعجبه ذلك وأمر أن تملأ له عشر مرات وقال الحسنة بعشر أمثالها.

وعرض رجل من بنى أمية للرشيد فناوله ورقة وإذا فيها مكتوب:

يا أمين الله إنى قائل قول ذى صدق ولب وحسب

لكم الفضل علينا ولنا بكم الفضل على كل العرب

عبد شمس كان يتلوها شما وهما بعد لأم ولأب

فصل الأرحام منها إنما عبد شمس صنو عبد المطلب

فأعجب الرشيد ذلك وأمر له بأربعة آلاف دينار لكل بيت ألف دينار وقال لو زدت لزدناك.

وامتدح المهلبى المستعين بالله بقصيدة فأمر له بمائتى ألف درهم.

وجلس المأمون فى رواق له على الدجلة فى ليلة مقمرة وهو يتأمل ضوء القمر والنجوم فى الماء إذ طلع إبراهيم بن المهدى فسلم عليه وقبل يده فدعا برطل وقال غن يا عم صوتا لأشرب عليه فغنى:

قد سمعت الديك صاحا ... ورأيت النجم لاحا

فاسقنا واقطع بنا الـ ... ـدهر اغتباقا واصطباحا

فشرب وطرب وقال يا ناثر احمل إلى عمى ثلاثين ألف دينار، وغنى إسحق الموصلى الواثق بالله قوله:

ظعنت سعاد غداة البين فى الوادى ... واخلفتك فما توفى بميعاد

ما أنس لا أنس إذ قامت تودعنا ... والحزن منها وإن لم تبده بادى

فأمر له بمائة ألف درهم.

واصطبح الوليد بن عبد الملك يوما فأحضر ابن شريح المغنى، وقال له يا أبا يحيى غن صوتا فى أرق أبيات قالتها العرب فغنى يقول:

أفاطم مهلا بعد هذا التدلل ... وإن كنت قد أزمعت هجرى فاجملى

وما ذرفت عيناك إلا لقتلتى ... بسهميك فى أعشار قلب مقبل

أغرك منى أن حبك قاتلى ... وإنك مهما تأمرى القلب يفعل

فقال والله لقد أصبت ما فى نفسى وأمر له بمال جزيل وخلع سنية، ثم

قال إن أميـر المؤمنين عبد الملك سألنا يومـا فقال إنما أرق أبيات قالتـها العرب فقلت أنا هذه فقال أخى سليمان بل قول بشر:

أريـد لأنسى ذكـــــرها فكأنما تمثـل لى لـيلى بـكل ســـبـــيل

أريد ولا كـــــفـــــران لـله إنمـا أعلـق إن علقـت كل مـــخـــيل

فقال أخى يزيد بل قول ثوبة:

أليس يضر العين أن تكثر البكا ويمنع منها نومها وسرورها

فقال أخى سلمة بل قول جرير:

إن الذيـن غـدوا بـلبك غـــادروا وشـــلا بعـينك لا يـزال مـعـينا

عـضين من عـبـراتهـن وقلن لى مـــاذا لقـيت من الهـــوى ولقـينا

فحكم لى أمير المؤمنين من بينهم وغناه ابن شريح الأبيات كلها فأضعف جائزته وغنى حكم الوادى عند الهادى فقال:

خـليـلى لا والله لا أمـلـك البـكـا إذا علـم من أرض ليـلى بدالـيـــا

خـلـيـلى لا والله لا أمـلـك الـذى قضى الله فى ليلى ولا مـا قضى ليا

قـضاها لـغيـرى وابتـلانى بحـبهـا فـهـلا بشىء غـيـر ليـلى ابتـلانيـا

فوثب الهادى عن فراشه طربا وشرب عشرة أرطال وهو قائم على قدميه وأمر له بثلاث بدر وبينما يزيد بن عبد الملـك على سطح وجاريته حبابة تغنيه بشعر الأخوص تقول:

إذا رمت عنهـا سلوة قـال شـافع من الحـسن مـيـعـاد الـسلو المقـابر

سيبقى لها فى مـضمر القلب والحشا ســريرة حـب يوم تبلى الـســرائر

فطرب يزيد وقال لمن الشعر قالت لا أدرى قال ابعثوا إلى الزهرى وككان قد ذهب من الليل شطره فأتى به فلما صعد إليه قال لا بأس عليك لم ندعك إلا لخير اجلس فجلس وسأله عن قائل الشعر، فقال الأخوص وهو محبوس يا أمير المؤمنين وقد طال حبسه فأمر بتخلية سبيله وأن يدفع إليه أربعمائة دينار ثم قدم عليه فأجازه وأحسن إليه.

وأحسن من هذا ما روى عن حماد الرواية قال كنت محبا للوليد بن عبد الملك فلما تولى أخوه يزيد الخلافة هربت إلى الكوفة فبينما أنا فى المسجد الأعظم إذ أتانى رسول محمد بن يوسف الثقفى وقال أجب الأمير فدخلت عليه فقال ورد كتاب أمير المؤمنين بحملك إليه وبالباب نجيبان فاركب أحدهما ودفع إلى كيسًا فيه ألف دينار وقال هذه نفقة لمنزلك فدخلت دمشق فى اليوم الثامن ودخلت عليه وإذا هو جالس فى دار مبلطة بالرخام الأحمر وفيها سرادق خز أحمر فى وسطه قبة حمراء من خز وفرشها وكلما فيها من خز أحمر وعلى رأسه جاريتان عليهما ثياب حمر بيد كل واحدة إبريق وفى يد واحدة نبيذ أحمر والأخرى نبيذ أبيض فلما واجهته سلمت عليه بالخلافة فرد على السلام وقال ادن يا حماد أتدرى فيم بعثت إليك قلت لا قال فى بيت شعر ذهب عنى أوله فقلت من أى عروض وقافية قال لا أدرى إلا أنه بيت فيه إبريق فقلت فى نفسى إن نفعتنى الرواية يوما فالآن وفكرت ساعة ثم قلت نعم يا أمير المؤمنين لعله فى قول تبع اليمانى:

بكر العاذلون فى وضح الصبح ... يقولون لى ألا تستفيق

ويلومون فيك يا بنت عبد اللـ ... ـه والقلب عندكم موثوق

لست أدرى إذا كثر العذل فيها ... أعدو يلومنى أم صديق

ثم نادوا إلى الصبوح فقامت ... قينة فى يمينها إبريق

فصاح يزيد وقال هو والله الشعر بعينه وشرب وقال يا جارية اسقه فسقتنى كأسًا أذهب ثلث عقلى ثم استعاد لشعر وشرب وقال اسقه فسقتنى الكاس الثانى ولما شربت ذهب ثلث عقلى الثانى ثم استعاد منى الشعر وشرب وقال يا جارية اسقه فقلت قد ذهب ثلثا عقلى يا أمير المؤمنين فقال سل حاجتك قبل أن يذهب الثلث الآخر فقلت إحدى الجاريتين قال هما لك وما عليهما ومائة ألف درهم يحسن بهم سيرك، ثم ناولتنى الجارية كأسا فشربتها ونهضت وقد ذهب عقلى فعدت إلى دار الضيافة فانتبهت آخر الليل وإذا بشمع يوقد والجاريتا ترصان الأمتعة والبغال تحمل مالهما من أثاث غيره وأصبحت قبضت المال وانصرفت وأنا أيسر أهل الكوفة.

وألطف من ذلك ما حكى أبو العباس محمد بن يزيد المبرد قال كان أبو عثمان المازنى قد جاءه يهودى وسأله أن يقرئه كتاب سيبويه وبذل له مائة دينار فامتنع أبو عثمان من ذلك قال المبرد فقلت له سبحان الله ترد مائة دينار مع فاقتك وحاجتك إلى درهم واحد. فقال نعم يا أبا العباس اعلم أن كتاب سيبويه يشتمل على ثلثمائة آية من كتاب الله ولا أرى إن أمكن منها كافرا فسكت. قال المبرد فما مضى إلا أيام قليلة حتى جلس الواثق يوما للشرب وحضر ندماؤه فغنت جارية فى الجلس هذا الشع وهو:

أظلوم إن مصابكم رجلا أهدى السلام تحية ظلم

فنصبت رجلا فلحنها بعض الندماء وقال الصواب الرفع لأنه خبران فقالت الجارية ما حفظته من معلمى إلا هكذا، ثم وقع النزاع بين الجماعة فمن قائل الصواب معه ومن قائل الصواب معها فقال الواثق من بالعراق من أهل العربية ممن يرجع إليه قالوا بالبصرة أبو عثمان المازنى وهو اليوم واحد عصره فى هذا العلم فقال الواثق بالله اكتبوا إلى والينا بالبصرة يسيره إلينا

معظما مبجلا فما كـان إلا أيام حتى وصل الكتاب إلى البصرة فأمر الموالى أبا عثمـان بالتوجه وسيـره على بغال البريد فلما دخل على الواثق رفـع مجلسه وزاد فى إكرامه وعـرض عليه البيت فقال الصـواب مع الجارية ولا يجوز فى رجلا غير النصب لأن مصاب مصدر بمعنى الإصابة ورجلا منصوب به والمعنى أن إصابتكم رجلا أهدى السلام تحـية ظلم فظلم خبران ولا يتم الكلام إلا به ففهم الواثق كـلام أبى عثمان وعلم أن الحق ما قـاله وأعجب وانقطع الرجل الذى كـان أنكر على الجارية ثم أمـر الواثق لأبى عـثمـان المازنى بألف دينار وأتحفه بتحف وهدايا كثـيرة لأهله ووهبت له الجارية جملة أخرى من المال ثم سيره إلى بلده مكرما، فلما وصل جاءه المبرد يهنيه بالقدوم فقال له أبو عثمان كيف رأيت يا أبا العبـاس تركت لله مائة فعوضنى ألفا فـقال البرد من ترك لله شيـئًا عوضه خـيرا منه ورأيت هذه الحكاية فى أدب النديم لكشـاجم منسوبة للمتوكل لا للواثق وأن الراد على الجارية يعقوب بن السكيت والله أعلم.

وأبلغ من ذلك مـا حكى أن جعفـر البرمكى نادم الرشـيد ليلة فـقال با جعفر بلغنى أنك اشتريت الجارية الفلانية رلى مدة أطلبها وبى شوق زائد إليها فبعنيهـا فقال ليس على فيها بيع، فقـال فهبنيها قال ولا أهبها. فـقال الرشيد زبيدة طالق منى ثلاثا إن لم تبعنيها أو تهبنيها ثم آفاقا من نشوتهما فعلما أنهما قد وقعا فى أمر عظيم وعجزا عن تدبيـر الحيلة، فقال الرشيد هذه واقعة ليس لها إلا أبو يوسف فاطلبوه وكان قد انتصف الليل فلما طلب قام فزعا وقال ما طلبت فى هذا الوقت إلا لأمـر حدث فى دين الإسـلام، ثم خرج مـسرعـا وركب بغلته وقال للغلام أصحب معك المخلاة واجـعل فيها بعض شعير فإذا وصلنا إلى دار الخلافة فضع للبغلة الشعـير تشتغل به إلى حين خروجى فإنها لم تستوف عليقها فى هذه الليلة فقال سمعًا وطاعة فلما دخل إلى الخليفة قام

إليه وأجلسه معه على السرير وقال ما طلبناك فى هذا الوقت إلا لأمر مهم وهو كذا وكذا وقد عجزنا عن تدبير الحيلة، فقال يا أمير المؤمنين هذا من أسهل ما يكون يا جعفر بع لأمير المؤمنين نصف الجارية وهبه نصفها وتبرا فى يمينكما فسر أمير المؤمنين بذلك وفعلا وقال القاضى أبى يوسف إنى أريد وطئها فى هذا الوقت ولا أطيق الصبر إلى مدة الاستبراء فقال أبو يوسف ائتونى بمملوك من مماليك أمير المؤمنين لم يجر عليه العتق فأتوا بمملوك فقال أبو يوسف يا أمير المؤمنين ائذن لى أن أزوجها منه ثم يطلقها قبل الدخول فيحل وطئها فى الحال من غير استبراء.

فأعجب الرشيد ذلك فقال أذنت لك فى ذلك فأوجب القاضى النكاح وقبله المملوك ثم قال له طلقها فقال هذه صارت زوجتى وأنا لا أطلقها فرددوا عليه القول فأبى وضاق صدر أمير المؤمنين رغبة بالمال فقال طلقها ولك مائة دينار قال لا أفعل قال مائتا دينار قال لا أفعل إلى أن عرض عليه ألف دينار وهو يمتنع فقال للقاضى الطلاق بيدك أم بيدى أمير المؤمنين فقال له القاضى بل بيدك قال والله لا ذكرته أبدًا فاشتد غضب أمير المؤمنين فقال أبو يوسف لا تجزع يا أمير المؤمنين فإن الأمر هين ملك هذا المملوك لها قد ملكتها إياه فقال لها قولى قبلت فقالت قبلت. قال القاضى حكمت بالتفريق بينهما لأه قد دخل فى ملكها، فانفسخ الناح فقام الرشيد على قدميه وقال مثلك من يكون قاضيا فى زماننا، ثم استدعى بأطباق الذهب فأفرغت بين يديه وقال للقاضى هل معك شىء تحمله فيه فتذكر مخلاة البغلة فاستدعا بها فملئت ذهبا، فأخذها وانصرف فلما أصبح قال لنظرائه من يتعلم العلم فليتعلمه هكذا.

فانظر أيها المتأدب إلى هذه الواقعة فإنها اشتملت على محاسن منها دلال جعفر على الرشيد وحلم الرشيد وكرمه وزيادة علم القاضى فرحم الله

أرواحهم أجمعين لكن مسئلة الاستبراء لم تخرج على مذهبنا وإنما خرجها أبو يوسف على قاعد مذهبه والله أعلم.

قال إسحق بن إبراهيم الموصلى: لما ولى الهادى الخلافة طلب أبى فاستتر منه للأيمان التى كان المهدى حلف بها فما زال حتى أتى به فجاء إليه فأمره بملازمته ووصله فى يوم واحد بمائة وخمسين ألف درهم وأجرى له رزقا فى كل شهر عشرة آلاف درهم سوى صلاته وغلال ضياعه وكان طعامه معدا فى كل وقت متى دعا به وجده حاضرا وكان لمطبخه فى كل يوم ثلاث شياه سوى الطير وكان مرتبه لطعامه وطيبه وفاكهته فى كل شهر ثلاثين ألف درهم غير الكسوة ومات وليس فى ملكه غير ثلاثة آلاف دينار وعليه دين أكثر منها فقضى عنه وغنا إبراهيم عنده فقال:

هجرتك حتى قيل لا يعرف الهوى ... وزرتك حتى قيل ليس له صبر

فيا حب ليلى قد بلغت بى المدا ... وزدت على ما ليس يبلغه الهجر

فيا حبها زدنى جوى كل ليلة ... ويا سلوة الأيام موعدك الحشر

وإنى لتعرونى لذكراك هزة ... كما انتفض العصفور بلله القطر

فأمر له الهادى بمائة ألف درهم وغضب الرشيد يوما عليه بسبب هفوة وقعت منه فى حال سكره فشفع جعفر بن يحيى فيه فأمر بإحضاره فلما حضر عنده غنا قوله:

سيدى إن يكن تعاظم ذنبى ... فاعف عنى فأنت للعفو أهل

لا تؤاخذ بما يقول على السكـ ... ـر فتى ماله لدى لصحو عقل

فصار يعاتبه ويوبخه فأنشد:

من لعبد أذله مولاه ماله شافع إليه سواه

يشتكى ما به لديه ويخشى وهو يرجوه مثل ما يخشاه

قال فاستعاده مرارا ووصله بمال، ونظر الرشيد إليه يوما فقال يا إبراهيم أرى الشيب يضحك بعارضيك فأنشد يقول:

تولى شبابى إلا قليلا وحل المشيب فصبرا جميلا

كفى حزنا بفراق الشباب وقد أصبح الشيب منه بديلا

ولما رأى الغانيات المشيب رددن عنى طرفا كحيلا

سأندب عهدا مضى للصبا وأبكى الشباب بكاء طويلا

قال فبكى الرشيد وقال والله لو قدرت على رد شبابك لفعلت فرحم الله تلك الأرواح الطاهرة.

وقال معبد: المغنى كنت منقطعا إلى البرامكة فبينما أنا ذات يوم فى منزلى وإذا ببابى يدق فخرج غلامى وعاد ثم قال على الباب فتى جميل يستأذن فأذنت له فدخل شاب عليه أثر الصقم فقال لى مدة أحاول لقائك ولى حاجة إليك فقلت ما هى فأخرج ثلثمائة دينار ووضعها بين يدى وقال أريد أن تقبلها منى وتصنع لى لحنا فى بيتين قلتهما قال أنشدنيهما فقال:

بالله يا طرفى الجانى على كبدى لتطفين بدمعى لوعة الحزن

لالا أبوحن حتى تحجبوا سكنى فلا تراه ولو أدرجت فى كفنى

قال معبد فصنعت لهما لحنا شجيا يشبه النوح وغنيته فأغمى عليه حتى ظننت أنه مات، ثم أفاق فقال أعد ما قلت فناشدته بالله وقلت أخشى أن تموت. قال ليت ذلك لو كان وما زال يخضع ويتضرع حتى رحمته وأعدته

فصعق صعقة أشد من الأولى فلم أشك فى موته وما زلت أنضح عليه من ماء الورد حتى أفاق ثم جلس فحمدت الله تعالى على السلامة ووضعت دنانيره بين يده وقلت خذ مالك وانصرف عنى قال لا حاجة لى بها ولك مثلها إن أعدتهما، فشرهت نفسى فقلت أعيدهما ولكن بثلاثة شروط أولها أن تقيم عندى وتأكل من طعامى حتى تقوى نفسك، والثانى أن تشرب من الشراب ما يمسك قلبك، والثالث أن تحدثنى بحديثك.

فقال لك ذلك، ثم قال اعلم أنى رجل من زهل المدينة خرجت متنزهًا مع إخوتى وقد سال المطرفى العقيق فرأيت فتاة مع فتيات كأنها غصن جلله الندا تنظر بعينين ما ارتد طرفهما إلا بنفس ملاحظهما فما زلنا حتى فرغ النهار وانصرفنا وقد أودت بقلبى جراحًا بطيئة الاندمال، فعدت أتسم خبرها فلم أجد أحدًا فجعلت أتبعها فى الأسواق فلم أقع لها على خبر ومرضت أسا وحكيت قصتى لذى قرابة لى فقلت لا بأس عليك هذه أيام الربيع انفضت وستمطر السماء فتخرج أنت وأخرج أنا معك وافعل مرادك.

قال فاطمأنت نفسى لذلك إلى أن سال العقيق وخرج الناس ينظرون فخرجت مع إخوتى وقرابتى وجلسنا فى مجلسنا بعينه فما لبثنا إلا والنسوة كفرسى رهان فقلت لذى قرابتى قولى لهذه الجارية يقول لك هذا الرجل لقد أحسن من قال:

رمتنى بسهم أقصد القلب وانثنت وقد غادرت جرحا به وندوبا

قال فمضت إليها وقالت لها ذلك فقالت قولى له وأحسن من قال أيضًا:

بنا مثل ما تشكو فصبرا لعلنا نرى فرجا يشف القلوب قريبا

قال فأمسكت عن الكلام خوفًا من الفضيحة وقمت منصرفا فقامت

لقيامى وتبعتها التى أرسلتها إليها من قرابتى حتى عرفت منزلها ورجعت فأخبرتنى بمكانها وسرت إليها حتى اجتمعنا واتصل ذلك حتى شاع وظهر وحجبها أبوها فلم أزل مجتهدا فى لقائها فلم أقدر فشكوت إلى أبى فجمع أهلنا ومضى إلى أبيها راغبا فى خطبتها فقال لو بدا له ذلك قبل أن يفضحها لفعلت ولكنه شهرها فما أحقق قول الناس قال معبد فأعدت عليه الصوت فطرب ولكن لم يحصل له كما حصل أولا ثم أعطانى ثلاثمائة درهم أخرى وعرفنى منزله ثم انصرف.

وكان طلبنى جعفر بن يحيى فحضرت على عادتى فغنيته شعر الفتى فطرب وشرب أقداحا وقال ويلك لمن هذا الصوت فحدثته حديث الفتى فأمرنى بالركوب إليه، وأ أجعله على ثقة من بلوغ أربه فمضيت إليه وأحضرته له واستعاده الحديث فحدثه فقال هى لك فى ذمتى حتى أزوجك إياها، فطابت نفسه وأقام معنا. فلما أصبح ركب جعفر إلى الرشيد وحدثه بذلك فاسترفه وأمر أن تحضروا جميعًا، فحضرنا واستعادنا الرشيد الصوت وشرب عليه فطرب وأمر بكتاب إلى عامل الحجاز بإحضار أبى المرأة وأهلها مجملين مبجلين إلى حضرته، وبالإنفاق عليهم نفقة واسعة، فلم يمض إلا يسير حتى حضروا فأمر الرشيد بإحضار الرجل إليه، فحضر وأمره بتزويج ابنته من الفتى وأعطاه ألف دينار ونقلت إلى أهله ولم يزل الشاب من ندماء جعفر حتى حدث به ما حدث فعاد الفتى بأهله إلى المدينة فرحم الله أرواحهم أجمعين.

وكان الحسن بن وهب قد عشق جارية محمد بن حماد عشقا شديدًا فأنفق عليها فى مدة قريبة ثلاثين ألف دينار، وكان يزورها فى بيت مولاها فعوتب على ذلك وقيل له لو أعطيت مولاها بعض ذلك لباعها منك. فقال هيهات عندى ثلاثون جارية أقلهن أبدع منها، ومع ذلك لو سألنى فيهن سائل

بساعة منها لبذلتهن له إذ الملك والإحاطة يورثان السآمة والملالة، وإنكم لا تدرون طعم لذة الممانعة وطيب المصادقة والمجالسة واشتغال الرقيب بانتهاز الفرصة.

وقال الرشيد للفضل بن يحيى بلغنى أنه قدم إمساعيل بن صالح وأنا أريد أن أراه قال يا سيدى أخوه عبد الملك فى حسبك وقد نهاه أن يمضى إلى أحد قال فإنى أتعلل حتى يأتينى عائدا فقال الفضل لإسماعيل ألا تعود أمير المؤمنين قال بلى فمضى به إليه وكان أخوه قد وجه إليه أنهم إنما يريدونك لتشرب معهم وتغنى لهم فإن فعلت فما أنت أخى فلما دخل على الشريد رفعه وأكرمه، وقال إنى وجدت بك راحة واشتهيت الطعام فقدمت المائدة فأكلوا وصف الطبيب أقداح الشرب.

فقال الرشيد والله ما شربنا حتى يشرب إسماعيل فقال له اتق الله يا سيدى فإن على يمينا أن لا أفعل شيئًا من ذلك، فقال لابد من الشرب فشرب ثلاثة أقداح وسقاه مثلها ثم مدت ستارة وخرج بعض الجوارى يضربن وبعض يغنين فطرب الرشيد وإسماعيل وتناول الرشيد عودا ووضعه فى حجر إسماعيل، وكان فى يد الرشيد سبحة فيها عشرة قطع اشتراها بثلاثين ألف دينار فوضع السبحة فى عنق العود وقال له غن وكفر عن يمينك بثمن هذه السبحة، فاندفع إسماعيل يغنى ويقول:

لعمرك ما أهويت كفى بريبة ... ولا حملتنى نحو فاحشة رجلى

ولا قادنى سمعى ولا بصرى لها ... ولا دلنى رأيى عليها ولا عقلى

وأعلم أنى لم تصبنى مصيبة ... من الدهر إلا قد أصابت فتى قبلى

فطرب الرشيد وقال الرمح يا غلام فعقد له لواء على مصر قال إسماعيل فوليتها سنتين وأوسقتها عدلا، وانصرفت منها بخمسمائة ألف دينار.

وحدث إبراهيم الموصلى قال خرجت يوما وأنا مخمور لأستنشق الهواء فوجدت رائحة طعام هناك استطيبتها فأمرت الغلام أن يعلم الرائحة فى أى مكان هى فقال فى تلك الدار فوقفت بالدار وإذا بجارية قالت ما تريد قلت تطعمونا من طعامكم فمضت إلى مولاتها ثم عادت وقالت ادخل فدخلت وجلست ثم أتت بخوان وأرسلت مولاتها إلى تقول لو كان مولانا حاضرا لم يدع مباسطتك ولا الشرب معك فرجعت وإذا أنا برجل على حمار يريد الدار فأبصرنى حين خرجت من الدار فلما صار لى الباب أقبل على الجارية وسزلها عنى فأخبرته فقال والله ما فعل هذا إلا فتى، فرجع إلى مسرعا وأدركنى وأقسم على فى الرجوع معه ولم يفارقنى حتى رجعت معه فادخلنى الدار وصعد بى إلى مجلس ظريف وإذا بشراب وريحان ولم تزل الجارية تختلف بألوان الفواكه والطيب من مولاتها ولم أزل فى المنزل إلى آخر النهار ثم انصرفت إلى منزلى فأخبرت أن الرشيد لم يزل فى طلبى فبكرت إليه فلما دخلت قال لى أين كنت قلت كان لى يا أمير المؤمنين قصة عجيبة. قال وما هى فأعلمته ووصفت له القدرة وطيبها والرجل ومنزله، وما كنت فيه عنده فضحك وقال أما سأل عنك ولا عرف من أنت قلت لا بل تشاغلنا بغير ذلك. قال إنى أشته هذه القدرات والشرب فى هذا الموضع فخذلنا موعدا بحيث لا يدرى بنا أحد.

قال فانصرفت من عند أمير المؤمنين وبكرت إلى الرجل فأتى بمثل ما كنت فيه وسر بحضورى فلما أخذ الشراب من رأسى قلت يا مولاى لى صديق آنس بقربه وقد وصفت له مروءتك وقد أحب أن يأتيك ويزورك ويأكل من هذه القدرة. قال السمع والطاعة متى تحب أن يكون ذلك قلت غدا فى أول الليل، فإن عليه دينا فلا يظهر نهارا. قال نعم، فانصرفت من عنده وأعلمت أمير المؤمنين فلما كان الليل ركبنا حمارين وأتينا إليه فأنزلنا وأكرمنا

وأتانا بالقدرة الموصوفة فأكل منها الرشيد واستطابها وقال ما أكلت مثلها، ثم أتانا بشراب وريحان وأقبلت اللطائف من المرأة في كل ساعة.

فلما رأى الرشيد هيئته سأله عن حاله ومعاشه فقال كانت لأبى نعمة فمات وخلف مالا كثيراً فأتلفته فلما بقى بعضه ترفقت به واقتصرت فيه فأنا من الله فى نعمة فلما أخذ الشراب منا أتانا بقينتين فسمعنا سنهما غناء حسنًا فقال الرشيد ناج الرجل سرا وعرفه مكانى فقلت يا فلان أتدرى من هو الذى عندك. قال لا. قلت هذا أمير المؤمنين الرشيد فضحك الرجل وقال عجيب أن أقع على شيء فيه خير يا طناز أى قرنان حتى استلقى على قفاه فضحك الرشيد ونهض الرجل إلى امرأته وقال أما تعجبين من أضيافنا هؤلاء فإنهم قد عربدوا علينا واستهزأوا بنا لما أكرمناهم زعم أحدهم أنه أمير المؤمنين ثم جاء ودفع القدح إلى الرشيد وقال اشرب يا أمير المؤمنين يهزأ به، فضحك الرشيد فقال إبراهيم للرجل والله إنه أمير المؤمنين حقا، فقال دعنا منك الآن ومن عربدتك إذ أنت لم تشرب إلا قدحين، صيرت هذا أمير المؤمنين فبعد ساعة تدعى فيه النبوة فاشتد ضحك الرشيد منه فلما كان وقت السحر وأردنا الانصراف قال الرشيد ناجه سرا وأخبره بصحة الخبر، فأخبره فعاد لقوله الأول فقلت له دع عنك هذا وبكر إلى جارك واسأله عن الملك واسأله عن إبراهيم الموصلى واعرف منزله، فإذا وصلت إلى الباب فقل للخدم أنا صاحب القدرة ثم انصرفنا من عنده فلما أصبح الصباح قال له جيرانه يا فلان ما هذه الحلبة التى كانت عندك الليلة، ومن هؤلاء الأخوان قال لا أدرى غير أن حالى معهم كيت وكيت، وقص عليهم القصة وأعاد عليهم قوله أنه أمير المؤمنين، وأعجب من هذا أنهم قالوا سل جارك عن الملك وعن إبراهيم الموصلى.

قال بعضهم صف لى صفة الرجل فوصفها له فقال امض الساعة وافعل

ما أمـرك فإنه أمير المؤمنين حـقا قال فركب وسـار إلى منزل إبراهيم الموصلى فاستأذن وقال أنا صاحب القدرة، فـدخل على إبراهيم فركب معه من ساعته إلى الرشيد وأعلمـه فأذن إله، وقال أعد مقـالتك فقال العفـو يا أمير المؤمنين فقال والله لابد أن تقوم كـما قلت فأعادها وضحك الرشيـد وسأله عن حاله وأمر له بثلثمائة ألف دينار وقال له صف لنا هذه القـدرة فقال يا أمير المؤمنين شيء وصلت به إلى هذا الموصل أفـأبذله فـما تبـقى فى مزية إذا أعلمـتك به ولكنى أطبـخهـا لأميـر المؤمنين فى أى وقت أرادها قال صـدقت إذا أردناها جهزنا من يأينا بها وكان الرجل يعرف بصاحب القدرة.

وقال ولده إسحـق غدوت يوما وأنا متـضجر من ملازمة الخـليفة وداره فعـزمت على أن أطوف فى الصحراء واتـفرج وقلت لغلمانى إن جـاء رسول الخليفة أو غيره فلا تعرفوه مكانى فطفت ما بدا لى ثم عدت وقد حمى النهار فوقفت فى فناء دار أستريح، فما لبثت أن جاء خادم يقود حمارا وعليه جارية راكبة وعليها فاخر الثياب، ورأيت عليها قواما حسنا وظرفا فائقًا فتوهمت أنها جارية مـغنية فدخلت الدار التى أنا واقف عليـها ثم لبثت قليـلا وإذا رجلان شابان جميـلان فاستـأذنا فأذن لهما فـدخلا ودخلت معهمـا فظنا أن صاحب البيت دعـانى وظن صاحب البيت إنى مـعهمـا وجلسنا فأتى بالطعـام فأكلنا وبالشراب ودخلت الجارية وفى يدها عـود فغنت وقمت قومة فـسأل صاحب المنزل عنى فأخبراه أنهما لا يعرفـانى فقالوا هذا طفيلى ولكنه ظريف فأجملوا عشرته فجئت فجلست وغنت الجارية أبياتًا وهى:

ذكـرتك إذ مـرت بـنا أم شـادن أمـام المطايا تسـتـريح وتسـبح

من المؤلفـات الرمل إذا مال نحـوه شعاع الضحى فى وجـهها يتوضح

فأدته أداء حسنا، ثم غنت أصواتا مـن القديم والحديث وغنت أبياتا من صنعتى وهى:

قل لمن صد عاتبا ونى عنك جانبا

قد بلغت الذى أرد ت وإن كنت لاعبا

قال إسحق فاستعدته منها لأصححه عليها فأقبل على أحد الرجلين يعنفنى ويقول ما رأينا طفيليا أصقع وجها منك لم ترض بالتطفيل حتى اقترحت صوتا وهذا غاية المثل (طفيلى ويقترح) فأطرقت وجعل صاحبه يكفه وهو لا يلتفت ثم قاموا إلى الصلاة وتأخرت بعدهم قليلا فأخذت عود الجارية وشددت طبقته وأصلحته إصلاحا محكما وصليت وعدت إلى موضعى وعادوا وأخذ ذلك الرجل فى عربدته وأنا صامت، ثم أخذت الجارية العود وجسته فأنكرت حاله وقالت من حبس عودى، قالوا ما حبسه أحد منا. قالت بلى والله لقد حبسه حاذق متقدم وشد طبقته وأصلحه إصلاح متمكن من الصناعة، فقلت لها أنا فقالت بالله عليك خذه واضرب به فأخذته وضربت به ضربا عجيبا فيه نقرات محكمة محركة فما بقى منهم أحد إلا وثب وجلس بين يدى، فقال صاحب المنزل أقسم بالله أن لك فى هذه الصناعة لصيتا فبالله عليك إلا ما عرفتنا بنفسك، فقلت أنا إسحق الموصلى ووالله إنى لأتيه على الخليفة إذ طلبت وأنتم ترون صاحبكم يسمعنى ما أكره لكونى نادمتكم وتأدبت معكم وحللت عندكم، ووالله لا نطقت بحرف ولا جلست حتى تخرجوا هذا الممقوت.

فقال له صاحبه من مثل هذا خفت عليك فأخذوا بيده وأخرجوه وعادوا فبدأت وغنيت الأصوات التى غنتها الجارية من صنعتى فقال لى الرجل هل لك فى خصلة قلت ما هى قال تقيم عندنا أسبوعًا والجارية والجهاز لك، قلت أفعل فأقمت عنده أسبوعًا لا يعرف أحد أين أنا والمأمون يطلبنى فى كل

موضع فلما اقتضت الأيام سلمنى الجارية والجهاز والخادم فجئت إلى منزلى وركبت إلى المأمون من وقتى، فلما رآنى قال يا إسحق ويحك أين كنت فأخبرته الخبر، قال على بالرجل الساعة فدللته عليه فأحضره وسأله المأمون عن القضية فأخبره بالقصة فقا أنت ذو مروءة وسبيلك أن تعان عليها وأمر له بمائة ألف درهم وقال لا تعاشر ذلك الندل المعربد وأمر لى بخمسين ألف درهم.

وكان المأمون قبل أن يظفر بإبراهيم بن المهدى لا يشرب فاتفق أن إسحق الظاهرى لقى على بن هشام كاتب المأمون فسلم كل منهما على الآخر فقال إسحق لعلى بن هشام بكلام خفى قد زارتنى اليوم فلانة وهى بغية أمير المؤمنين فبحياتى عليك إلا ما زرتنى وسرت إلى حتى تأنس بها فقد طال انفرادنا وكان بالقرب منهما طفيلى يسمع كلامهما فمضى الطفيلى من وقته ولبس ثيابًا نظافًا واستعار فرسًا ووافى على بن هشام وقال للحاجب عرفه أنى صاحب إسحق فدخل الحاجب وخرج مسرعا قال ادخل فدخل وسلم فأحسن، وقال يا سيدى يقول لك أخوك أنت تعلم ما اتفقنا عليه فلم تأخرت عنه فقال قل له الساعة وحياتك نزلت من الركوب وغيرت صيابى وتهيئت كما ترى فخرج من عنده وأتى إسحق وقال للحاجب عرفه أنى رسول على ابن هشام، فدخل وخرج مسرعًا وقال ادخل فدخل وسلم بأحسن سلام وقال أخوك يقرئك السلام، ويقول لك الساعة نزلت من الركوب وغيرت ثيابى وتهيئت، فقال له قبل يده وقل له يا سيدى قتلنا جوعًا فبحياتك إلا ما أسرعت فخرج من عنده وأتى عليا وقال له إن الأمير أيده الله أمرنى أن لا أربح حتى آتيه بك فركب ومعه الطفيلى حتى دخلا جميعًا فسلما وجلسا فجاء الطعام فأكلوا وكل منهما يظن أنه من أخصاء الآخر، وغسلوا أيديهم وتطيبوا وأخذوا فى شرابهم وجلست الجارية وإذا هى أحسن ما خلق الله قدا

وزيا فدهش كل منهما وفرح بها، ثم أتى بعود فوضع فى حجرها فغنت أحسن غناء ودارت الأقداح والأرطال ولم يزالوا إلى العصر وأخذ الطفيلى البول فصبر له جهده حتى كاد يأتى على روحه فقام ودخل الخلاء.

فقال على لإسحق ما أخف روح هذا الرجل فمن أين وقع لك قال أوليس هو صاحبك قال لا وحياتك وقص كل منهما قصته فعلما أنه طفيلى فاغتاظ إسحق غيظًا عظيمًا لم يملك نفسه معه، وقال طفيلى يجترى على وعلى حرمى بالدخول إلى دارى والنظر إلى عيالى، وقال يا غلمان السياط والجلادين والطفيلى يسمع جميع ذلك، ثم إنه خرج متبخترا سابلا ثيابه يشد تكة لباسه غير مكترث بما قاله إسحق، وقال جعلت فداك أى شىء أبقيت من هدك ومع هذا كله فهل عرفتنى.

قال إسحق ومن أنت ويلك، قال أنا صاحب أمير المؤمنين وخبية سره، لولا حرمة طعامكما ومالحتى لكما لتركتكما فى عماء من أمرى حتى كنت أنت تعرف عاقبة أمرك وإقدامك على ما فيه هلاكك وفساد حالك عند أمير المؤمنين، فلم يسعهما غير القيام إليه والاعتذار بين يديه وقالا له والله لا نعرفك ولا نعلم حالك فلك الفضل علينا بتطفيلك إلى عشرتنا فأنت المحسن المتفضل، ولكن تمم إحسانك واستر ما نحن فيه، ثم قال إسحق يا غلام خلعه فأتى بثياب فاخرة فألبسها له وتقدم إلى إسراج دابة هملاج بسرج ولجام حسن، ولم يزالا به حتى طابت نفسه ووعدهما كتمان أمرهما فلما حضر وقت الانصراف ودعهما واتبعه إسحق بخادم وصرة فيها ثلثمائة دينار فأخذها وركب الدابة ومضى إلى حال سبيله فلما كان الغد دخل على المأمون فقال أين كنت يا على وما قصتك أمس، فتغير لونه ولم يشك أن الحديث بلغه فقال الأمان يا أمير المؤمنين وأكب على البساط يقبله قلك لك الأمان أخبرنى فأخبره القصة فضحك المأمون حتى كاد أن يغشى عليه وقال أفى الدنيا أظرف

من هذا وأحسن حيلة ووجه إلى إسحق فلما حضر قال هبه لى يا إسحق فجعل إسحق يتأسف على ذلك الطفيلى وكيف خلص منه فقال المأمون بحياتى هبه لى وعلى به فلم يزل إسحق فى طلبه حتى ظفر به وجاء به إلى المأمون فأحسن إليه وجعله أحد ندمائه.

وحكى صاحب تاريخ بغداد عن مخارق المغنى قال تطفلت تطفيلة قامت على أمير المؤمنين المعتصم بمائة ألف درهم فقيل له كيف ذلك قال شربت معه ليلة إلى الصبح فلما أصبحنا قلت له يا سيدى إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لى فأخرج إلى الرصافة فأتنسم إلى وقت انتباه أمير المؤمنين قال نعم وأمر البوابين أن يتركونى فخرجت أتمشى وإذ أنا بجارية كأن الشمس تشرق من وجهها فتبعتها ورأيت معها زنبيلا فوقفت على صاحب فاكهة فاشترت منه سفرجلة بدرهم ورمانة بدرهم وكمترايا بدرهم وانصرفت فتبعتها فرأتنى فقال لى يا ابن الفاعلة إلى أين تريد قلت خلفك يا سيدتى فقال ارجع يا ابن الزانية لئلا يراك أحد فيقتلك فتأخرت ومشيت من بعيد وهى تمشى أمامى، ثم التفتت فرأتنى فشتمتنى شتماً قبيحًا، ثم جاءت إلى باب كبير فدخلت فيه وجلست أنا بحذاء الباب وقد ذهب عقلى ونزلت على الشمس وكان يوما حارا فما لبثت أن جاء فتيان كأنهما بدران على حمارين فلما وصلا إلى الباب استأذنا فأذن لهما فدخلا ودخلت معهما فظن صاحب المنزل أنى معهما وظن أن صاحب المنزل قد دعانى وجىء بالأكل فأكلنا وغسلنا أيدينا، ثم قال لنا صاحب المنزل هل لكما فى فلانة قالوا إن تفضلت فاستدعى تلك الجاري فخرجت صاحبتى ووراءها وصيفة تحمل عودها فوضعته فى حجرها وغنت فشربوا وطربوا فقالوا لمن هذا الصوت قالت لسيدى مخارق ثم غنت صوتا آخر فشربوا وطربوا وهى تلحظنى وتشك فى فقالوا لمن هذا الصوت فقالت سيدى مخارق، ثم غنت صوتا ثالثا فطربوا وشربوا بالأرطال فقالوا لمن هذا الصوت قالت لسيدى مخارق، فلم ألبث أن قلت يا جارية شدى يدك

فشـدت أوتارها وخرجـت عن إيقاعـها الذى تقـول عليه فـاستدعـيت بدواة وقضيب وغنيت الصوت الذى غنته الجارية أولا فقاموا إلى وقبلوا رأسى.

قال الراوى وكـان مخـارق أحسن الناس صـوتا وكان يوقع بالقـضيب توقيعا عجـيبًا، ثم غنيت الصوت الثانى والثالث فكادت عقـولهم تطير فقالوا بالله من أنت يا سيـدى، فقلت أنا مخـارق فقالوا مـا سبب مجـيئك، قلت طفيلى أصلحكم الله وأخبرتهم بخبرى فقال صاحب البيت لصديقيه أما تعلما أنى أعطيت فى الجارية ثلاثين ألف درهم فامتنعت عن بيعها قال نعم قال هى له قال صـديقاه علينا عشـرون ألف درهم وعليك عشرة آلاف. قال مـخارق فملكـونى الجارية وجلست عندهم إلى العـصر وانصـرفت بها وكلمـا مررت بالواضع التى شتمتنى فـيها أقول لها يا مولاتى أعيدى كلامـك فتستحى منى فأحلف عليها لتـعيدنه فتعيده حتى وصلنا إلى باب أمـير المؤمنين فقيل لى إنه انتبه وطلبك فى منازل أبناء القواد فلم يجدك وتغيظ عليك غيظًا عظيمًا شديدًا فدخلت عليه ويدى فى يدهـا فلما رآنى سبنى وشتمنى فـقلت يا أمير المؤمنين لا تعقل وحـدثته القصة فـضحك وقال نحن نكافـئهم عنك فأحضـرهم وأمر لكل واحد منهم بثلاثين ألف درهم ولى بعشرة آلاف درهم.

وحكى القاضى شهاب الدين بن فضل الله فى كتابه مسالك الأنصار فى ممالك الأمصار فى ترجمة الآمـر بأحكام الله أبى على المنصور، قال بينما هو فى موكـبه قبلى بركـة الحبش إذ مر برجل على باب بسـتان له وحوله عبـيد وموالى فاستسـقاه المنصور ماء فسقاه ثم قال يا أميـر المؤمنين قد أطمعتنى فى السؤال فإن رأى أميـر المؤمنين أن يسعفنى بنزوله لأضيفه فليـفعل فقال ويحك معى الموكب بالجيش وليس عندك ما يكفينا وأنا لا يمكننى النزول وحدى فقال وليكن يا أمـير المؤمنين فنزل وترجل الجـيش معه فـأخرج الرجل مـائة بساط ومائة نطع ومائة وسادة ومائة طبق فاكـهة ومائة جام حلوى ومائة زبيدة أشربة سكرية فبهت الأمير وقال له أيها الرجل خـبرك عجيب، فهل علمت بقدومنا

فأعددت لنا ذلك قال لا والله يا أمير المؤمنين وإنما أنا رجل تاجر من رعيتك لى مائة محظية فلما أكرمنى أمير المؤمنين بنزوله أخذت من كل واحدة شيئًا من فرشها وراتب أكلها وشربها ولكل واحدة فى كل يوم طبق طعام وطبق بوارد وطبق فاكهة وجام حلوى وزبدية شراب فسجد الأمير شكرًا لله تعالى وقال الحمد لله الذى جعل فى رعايانا من يسع حاله ذلك، ثم أمر له بجميع ما فى بيت المال من الدراهم المضروبة فى تلك السنة، فكانت ثلاثة آلاف ألف درهم وسبعمائة ألف درهم، ولم يركب حتى أحضرها وأعطاها للرجل وقال له استعن بهذه على حالك ومروءتك، ثم ركب وانصرف.

وقال إسحق بن إبراهيم الموصلى دعانى يحيى بن خالد فدخلت عليه فوجدت الفضل وجعفر ولديه جالسين بين يديه فقال يا إسحق أصبحت اليوم مهموما فأردت الصبوح لأتسلى فغننى صوتا للى أرتاح له فغنيته:

إذا نزلوا بطحاء مكة أشرقت ... بيحيى وبالفضل ابن يحيى وجعفر

فما خلقت إلا لجود أكفهم ... وأرجلهم إلا لأعواد منبر

فسر وأمر لى بمائة ألف درهم وأمر لى كل واحد من ولديه بمائة ألف درهم فحملت المال وانصرفت.

وحكى عن مخارق قال أصبحت السماء يوما مغيمة واصطبح الرشيد مع حريمه فأمرنا بالانصراف وأذن لنا أن نقيم فى منازلنا ثلاثة أيام، فمضى النداما أجمعون إلى منازلهم فقلت والله لأذهبن إلى أستاذى إبراهيم الموصلى فأعرف خبره ثم أعود وأمرت من عندى أن يهيئوا إلى مجلسا حسنا إلى وقت رجوعى فجئت إلى دار إبراهيم وقلت للبواب ما خبر أستاذى قال ادخل فدخلت فإذا هو جالس فى رواق وبين يديه أباريق الشراب وأطباق الفواكه والرياحين والستارة منصوبة والجوارى خلفها فقلت ما بال الستارة لا أسمع من ورائها صوتا. قال اقعد ويحك إنى أصبحت على ما ترى فأتانى خبر ضيعة

تجاورنى وقد والله طلبتها زمانا وتمنيتـها فلم أملكها، وقد أعطى الآن فيها مائة ألف درهم فقلت له ومـا يمنعك منها فوالله لقد أعطاك الله أضـعاف هذا المال قال صدقت ولكن نفسى غير سامـحة بإخراج هذا المال فى لحظة واحدة فخذ هذا الصوت ونقر بقضيب كان فى يده على صينية وألقى على هذه الأبيات:

نام الخليـون من هم ومـن سـقم وبت من كـثـرة الأحـزان لم أنم

يا طالب المال والمعـروف مجتهـدا اعمد ليـحيى حليف الجود والكرم

قال فـأخذته وأحكمتـه ثم قال امض الساعة إلـى بيت الوزير يحيى بن خالد فـاستأذن عليـه وحدثه بما رأيت واذكر لضـيعة وعـرفه أنى صنعت هذا الصوت فأعجـبنى ولم أر أحدا يستحقه إلا جاريته دنانيـر، وإنى ألقيته عليك لتلقيـه عليها فإنه يدعـو بها ويأمر بنصب السـتارة، ويقول لك اطرحه عليـها فاطرحـه وأتنى بما يكون من الخبر. قال فـجئت باب يحيى وأعلمتـه وألقيت الصوت على الجارية حتى أحكمته فـقال لى أتقيم عندنا أم تنصرف فقلت بل أنصرف أطال الله تعالى بقاء الوزير فقال يا غلام احمل معه عشرة آلاف درهم واحمل إلى إبراهيم مـائة ألف درهم فحملت مـالى وأتيت إلى منزلى فنثرت على من عندى من الجـوارى دراهم من تلك البـدرة، وأكلت وشـربت بقيـة يومى فلا أصبـحت قلت والله لأذهبن إلى أستاذى ولأعرفن خبـره فأتيت إليه ودخلت فوجدته مـثل ما كان بالأمس، فقلت له ما الخـبر ألم يأتك المال قال نعم غير أنه لما دخل منزلى بخلت نفسى بإخراجه.

ثم ألقى على صـوتا آخر وقال اذهب بـه إلى الفضل بن يحـيى وحدثه عنى كما فعلت بالأمس وأخبره بما فعل أبوه قال مخارق فأتيت به إلى الفضل ابن يحيى وحدثتـه بما كان بالأمس من أبيه فأمر أن يحمل مـعى عشرون ألف درهم وإلى إبراهيم مـائتا ألف درهم، وفعلت كـما فعـلت بالأمس وغدوت عليه فوجدته على مثل حاله الأول، فـاعتذر مثل عذره وألقى على صوتا آخر وقال يمم به جـعفر وحدثه بما كـان من أبيه وأخيـه فأتيت به جعفـر بن يحيى

وأخبرته بما كان منهما فأمر أن يحمل معى ثلاثون ألف درهم وإلى إبراهيم ثلثمائة ألف درهم فحملت إليه فلما جئت من الغد لإبراهيم بكى وقال وصلى إلى ستمائة ألف درهم وأنا جالس فى بيتى لم أبرح منه فعلى مثل هؤلاء يناح ويبكى.

ومن الحكايات المستحسنة ما حكى عن إبراهيم بن المهدى قال قال جعفر بن يحيى يوما إنى استأذنت أمير المؤمنين فى الخلوة غدا فهل أنت مساعدى فقلت جعلت فداك أنا أسعد الناس بمساعدتك وأسرهم بمحادثتك قال فبكر إلى بكور الغراب قال فأتيته عند الفجر فوجدت الشمعة بين يديه وهو ينتظرنى للميعاد فصلينا ثم أفضنا فى الحديث ثم قدم إلينا الطعام فأكلنا فلما غسلنا أيدينا خلعت علينا ثياب المنادمة وبخرنا وطيبنا ثم ضمخنا بالخلوف ثم مدت الستارة فظللنا فى أنعم عيش، ثم إن جعفر تذكر حاجة فدعا بالحاجب وقال إذا أتى عبد الملك فإذن له يعنى قهرمانا له فاتفق أن جاء عبد الملك بن صالح عم الرشيد وهو من جلالة القدر والورع والامتناع من منادمة الرشيد على أمر عظيم، وكان الرشيد اجتهد أن يشرب معه قدحا فلم يقدر عليه ترفعا لنفسه فلما رفع الستر وطلع علينا كاد أن يسقط القدح من أيدينا وعلمنا أن الحاجب قد غلط بينه وبين عبد الملك القهرمان فأعظم جعفر ذلك وارتاع له ثم قام إليه إجلالا فلما نظر إلينا على تلك الحالة دعا غلامه فدع إليه عمامته وسيفه، ثم قال اصنعوا بنا ما صنعتموه بأنفسكم قال فجاء الغلمان فطرحوا عليه ثياب المنادمة من الحرير وخلقوه ودعا بالطعام فأكل وشرب ثلاثا، ثم قال ليخفف عنه فإنه شىء والله ما شربته قط فتهلل وجه جعفر وفرح ثم التفت جعفر إليه وقال جعلت فداك لقد تطولت وتفضلت وساعدت فهل من حاجة تبلغ إليها قدرتى وتحيط بها بغيتى فاقضها لك مكافأة لما صنعت قال نعم إن فى قلب أمير المؤمنين على غضبا فتسأله الرضا عنى قال قد رضى عنك أمير المؤمنين قال وعلى عشرة آلاف دينار قال هى حاضرة من مالى ولك من مال أمير المؤمنين مثلها قال عبد الملك وابنى إبراهيم أريد أن أشد ظهره بصهارة أمير

المؤمنين. قال جعفر قد زوجه أمير المؤمنين ابنته الغالية ثم قال عبد الملك وأحب أن تخفق الألوية على رأسه فقال جعفر قد ولاه أمير المؤمنين مصر ثم انصرف عبد الملك بن صالح قال إبراهيم بن المهدى فبقيت متعجبًا من إقدام جعفر على الرشيد بهذه الأمور وقلت عسى أن يجيبه فيما سأل من الرضاء والمال والولاية، وأما التزويج فلا أدرى ما يكون فإن أمير المؤمنين متى أطلق لجعفر أو غيره تزويج بناته فلما كان من الغد بكرت إلى باب الرشيد لأرى ما يكون فدخل جعفر فلم يلبث أن دعا بأبى يوسف القاضى وإبراهيم بن عبد الملك بن صالح فخرج إبراهيم وقد عقد نكاحه على الغالية بنت الرشيد وعقد له لواء الولاية لى مصر، والرايات تخفق على رأسه وبين يديه وحملت البدر إلى منزل عبد الملك وخرج جعفر وأشار إلينا فلما صرنا إلى منزله التفت رينا وقال تعلقت قلوبكم بحديث عبد الملك فأحدثكم بأمره لما دخلت على أمير المؤمنين وتمثلت بين يديه. قال لى كيف كان أمس يا جعفر فحدثته حتى بلغت إلى دخول عبد الملك بن صالح وكان متكافئًا فاستوى جالسًا وقال إيه لله أبوك فقلت سألنى فى رضاءك يا أمير المؤمنين قال بم أجبته قال قلت قد رضى عنك أمير المؤمنين قال قد أنجزته قال ثم ماذا قلت وذكر أن عليه عشرة آلاف دينار دينا قال بم أجبته قال قلت قد قضاها أمير المؤمنين عنك قال قد قضيتها قال ثم ماذا قلت ورغب أن يشتد ظهره بصهارة أمير المؤمنين لولده إبراهيم قال بم أجبته قال قلت قد زوجه أمير المؤمنين بابنته الغالية قال قد أمضيت ذلك قال ثم ماذا قلت قال وأحب أن تخفق الألوية على رأس ولده إبراهيم. قال بم أجبته قال قلت قد ولاه أمير المؤمنين على مصر قال قد وليته فأمر بإحضار إبراهيم بن عبد الملك والقاضى والشهود فحضروا وتم له جميع ذلك من ساعته قال إبراهيم بن المهدى فوالله ما أدرى أى الثلاثة أكرم وأعجب فعلا ما ابتدأه عبد الملك من المساعدة فى شرب الخمر ولم يكن يشربها ولباسه الحرير من ثياب المنادمة وكان رجلا عارفا ورعا أم أقدام جعفر على الرشيد بما أقدم أم إمضاء الرشيد جميع ما حكم به جعفر فرحم الله تلك الأرواح الطاهرة والسجايا الظاهرة.